

❖ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَلِلَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُوْمِنُونَ بِمَا هُوَ مِنَ الْيَمِينِ هَتُولَاءُ مَنْ يُوْمِنُ بِمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ يَنْتَظِرُ فِي صُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٍ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدٌ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ه وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

توجيهات في طريقة جدال أهل الكتاب 55-46

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ)

ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب:- 1- إذا كانت من غير بصيرة من المجادل 2- أو بغير قاعدة مرضية

و أن لا يجادلوا إلا ب:- (إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) ب:- 1- حسن خلق و لطف و لين كلام 2- و دعوة إلى الحق

وتحسينه 3- و رد عن الباطل و تهجينه بأقرب طريق موصل لذلك

4- وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو 5- بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق

* كقوله {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَدِينَ} [النحل: 125] وَ قَالَ تَعَالَى لِمُوسَى وَ هَارُونَ {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: 44]

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) إلا من ظلم من أهل الكتاب بأن :-

ظهر من قصده و حاله أنه لا إرادة له في الحق و إنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة

فهذا لا فائدة في جداله لأن المقصود منها ضائع.

وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ

و لتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على:-

الإيمان بما أنزل إليكم و أنزل إليهم و على الإيمان برسولكم و رسولهم و على أن الإله واحد

و لا تكن مناظرتكم إياهم:- على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية أو بأحد من الرسل

كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم:-

يقدر بجميع ما معهم من حق و باطل فهذا ظلم و خروج عن الواجب و آداب النظر

فإن الواجب:-

- 1- أن يرد ما مع الخصم من الباطل 2- و يقبل ما معه من الحق 3- و لا يرد الحق لأجل قوله و لو كان كافرا.
- و أيضا فإن بناء مناظرة أهل الكتاب على هذا الطريق فيه:-

إلزام لهم بالإقرار بالقرآن و بالرسول الذي جاء به . فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية التي اتفقت عليها الأنبياء و الكتب و تقررت عند المتناظرين و ثبتت حقائقها عندهما و كانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن و محمد ﷺ قد بينتها و دلت عليها وأخبرت بها فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها و الرسل كلهم و هذا من خصائص الإسلام.

فأما أن يقال:-

نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلاني دون الكتاب الفلاني و هو الحق الذي صدق ما قبله فهذا ظلم و جور و هو يرجع إلى قوله بالتكذيب لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها المصدق لما بين يديه من التوراة فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن.

* و أيضا فإن كل طريق تثبت به نبوة أي نبي كان فإن مثلها و أعظم منها دالة على نبوة محمد ﷺ و كل شبهة يقدر بها في نبوة محمد ﷺ فإن مثلها أو أعظم منها يمكن توجيهها إلى نبوة غيره فإذا ثبت بطلانها في غيره فشوت بطلانها في حقه ﷺ وأظهر وأظهر.

* البخاري 4485 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَ يُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَ لَا تُكْذِّبُوهُمْ وَ قُولُوا: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا} [البقرة: 136]

* البخاري 7363 - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ وَ كِتَابُكُمْ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَدُتُمْ تَقْرَءُونَهُ مَحْضًا (صرفا خالصا ليس فيه تغيير ولا تبديل ولا تحريف) لَمْ يُشَبَّ وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ وَ غَيَّرُوهُ وَ كَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا؟ أَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ؟ لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ (وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) منقادون مستسلمون لأمره.

* و من آمن به و اتخذها إلها و آمن بجميع كتبه و رسله و انقاد لله و اتبع رسله فهو السعيد

* و من انحرف عن هذا الطريق فهو الشقي 46

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) يا محمد

هذا (الْكِتَابُ) الكريم المبين كل نبأ عظيم الداعي إلى كل خلق فاضل و أمر كامل

المصدق للكتب السابقة المخبر به الأنبياء الأقدمون.

(قَالِ الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكِتَابُ) فعرفوه حق معرفته و لم يداخلهم حسد و هوى.

(يُؤْمِنُونَ بِهِ) لأنهم تيقنوا صدقه بما لديهم من **الموافقات** و بما عندهم من **البشارات**

و بما تميزوا به من معرفة **[الحسن و القبيح و الصدق و الكذب]**

*الَّذِينَ أَخَذُوا فَتْلَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ مِنْ أَحْبَابِهِمُ الْعُلَمَاءِ الْأَذْكِيَاءِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَأَشْبَاهِهِمَا.

(وَمِنْ هَؤُلَاءِ) الموجودين- الْعَرَبَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ

(مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ) إيماننا عن بصيرة لا عن رغبته و لا رهبته.

(وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ) الذين دأبهم الجحود للحق و العناد له.

و هذا حصر لمن كفر به أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق

*و إلا فكل من له قصد صحيح فإنه لا بد أن يؤمن به لما اشتمل عليه من البينات لكل من له عقل أو ألقى السمع و هو شهيد.

*و من معجزاتك البينة -أيها الرسول- (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا) (تقرأ) (من قبله) من كِتَابٍ

(وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ) و أنك لم تكتب حروفاً بيمينك قبل نزول القرآن عليك

(إِذَا) و لو كنت قارئاً أو كاتباً من قبل أن يوحى إليك

(لَا رِتَابَ) لشك في ذلك (الْمُبْطُلُونَ) و قالوا: تعلّمه من الكتب السابقة أو استنسخه منها.

{وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفرقان: 5]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان: 6]

فأما و قد نزل على قلبك كتابا جليلا تحديث به الفصحاء و البلغاء الأعداء أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله فعجزوا غاية العجز

*بل و لا حدثتهم أنفسهم بالمعارضة لعلمهم ببلاغته و فصاحته و أن كلام أحد من البشر لا يبلغ أن يكون مجاريا له أو على منواله

و لهذا قال: (بَلْ هُوَ) هذا القرآن (آيَاتٌ يُنَنِّتُ) لا خفيات

(فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) و هم سادة الخلق و عقلاؤهم و أولو الألباب منهم و الكُمل منهم.

*فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء كانوا حجة على غيرهم و إنكار غيرهم لا يضر و يكونون ظلمة

و لهذا قال: - (وَمَا يَجْحَدُ) يكذب (بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ)

لأنه لا يجدها إلا جاهل: - تكلم بغير علم و لم يقتد بأهل العلم و هو متمكن من معرفته على حقيقته

و إما متجاهل: - عرف أنه حق فعانده و عرف صدقه فخالفه.

* كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يُونُس: 96 97]

(وَقَالُوا) أى: قال المشركون (لَوْلَا) هلا (أَنْزَلَ عَلَيْهِ) أنزل على محمد

(ءَايَاتٌ مِنْ رَبِّهِ) دلائل و حجج من ربه نشاهدها كناقاة صالح و عصا موسى!

كقوله (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) الاسراء

فتعين الآيات ليس عندهم و لا عند الرسول ﷺ فإن فى ذلك تدبيرا مع الله و أنه لو كان كذلك و ينبغى أن يكون كذلك و ليس لأحد من الأمر شىء.

(قُلْ) لهم (إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ) إن أمر هذه الآيات لله إن شاء أنزلها و إن شاء منعها

* إِنَّمَا أَمْرٌ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّهُ لَوْ عَلِمَ أَنَّكُمْ تَهْتَدُونَ لَأَجَابَكُمْ إِلَى سُؤَالِكُمْ لِأَنَّ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ وَ لَكِنَّهُ يَعْلَمُ مِنْكُمْ أَنَّمَا قَصْدُكُمْ التَّعَنُّتُ وَالْإِمْتِحَانُ فَلَا يُجِيبُكُمْ إِلَى ذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا} [الْإِسْرَاء: 59]

(وَلَئِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ) أحذركم شدة بأسه و عقابه (مُبِينٌ) طريق الحق من الباطل- ليس لى مرتبة فوق هذه المرتبة

و إذا كان القصد بيان الحق من الباطل فإذا حصل المقصود- بأى طريق- كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلما و جورا و تكبرا على الله و على الحق

○ بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات و يكون فى قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلا بها كان ذلك ليس بإيمان

و إنما ذلك شىء وافق أهواءهم فآمنوا لا لأنه حق بل لتلك الآيات.

فأى فائدة حصلت فى إنزالها على التقدير الفرضى؟

وَ قَالَ تَعَالَى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [الْبَقَرَة: 272]

* و لما كان المقصود بيان الحق ذكر تعالى طريقه فقال:-

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ) فى علمهم بصدقك و صدق ما جئت به

(أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ)

* البخارى 4981 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ

(أجرى على يديه من المعجزات الشئ الذي يقتضى إيمان من شاهدها بصدق دعواه لأنها من خوارق العادات حسب زمانه ومكانه)

وَ إِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا (قرآنا موحى من الله تعالى يبقى إعجازه على مر الأزمان و لذلك يكثر المؤمنون به ويوم القيامة يكون أتباعه العاملون بشريعته

المنزلة أكثر من الأتباع العاملين بالشرع الحق لكل نبي) أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

هذا كلام مختصر جامع فيه ———ن:—

1-الآيات البينات 2-و الدلالات الباهرات شىء كثير

*فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجردة وهو أُمي من أكبر الآيات على صدقه.

ثم عجزهم عن معارضته و تحديه إياهم آية أخرى ثم ظهوره و بروزه جهرا علانية يتلى عليهم و يقال: هو من عند الله قد أظهره الرسول و هو في وقت قلَّ فيه أنصاره و كثر مخالفوه و أعداؤه فلم يخفه و لم يشن ذلك عزمه بل صرح به على رءوس الأشهاد و نادى به بين الحاضر و الباد بأن هذا كلام ربي فهل أحد يقدر على معارضته أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟.

*ثم إخباره عن قصص الأولين و أنباء السابقين و الغيوب المتقدمة و المتأخرة مع مطابقتها للواقع.

*ثم هيمنته على الكتب المتقدمة و تصحيحه للصحيح و نفي ما أدخل فيها من التحريف و التبديل

*ثم هدايته لسواء السبيل في أمره ونهيه فما أمر بشيء فقال العقل « **ليته لم يأمر به** » و لا نهى عن شيء فقال العقل: « **ليته لم ينه عنه** »

بل هو مطابق للعدل و الميزان و الحكمة المعقولة لذوى البصائر و العقول

*ثم مسابقة إرشاداته و هدايته و أحكامه لكل حال و كل زمان بحيث لا تصلح الأمور إلا به.

*فجميع ذلك يكفى من أراد تصديق الحق و عمل على طلب الحق فلا كفى الله من لم يكفه القرآن و لا شفى الله من لم يشفه الفرقان و من اهتدى به و اكتفى فإنه خير له فلذلك قال:-

(**إِن فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً**) بَيَانًا لِلْحَقِّ وَ إِزَاحَةً لِلْبَاطِلِ -رحمة في الدنيا و الآخرة

(**وَذَكَّرَى**) يتذكرون بما فيه من عبرة وعظة-بما فيه حُلُولُ النَّقَمَاتِ وَ نُزُولُ الْعِقَابِ بِالْمُكْذِبِينَ وَ الْعَاصِينَ

(**لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**) و ذلك لما يحصلون فيه مــــن:-

1-العلم الكثير و الخير الغزير 2-و تربية القلوب و الأرواح

3-و تطهير العقائد 4-و تكميل الأخلاق 5-و الفتوحات الإلهية 6-و الأسرار الربانية.

(**قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا**) شاهدًا على صدقي أنى رسوله لهذا أَيْدِي بِالْمُعْجَزَاتِ الْوَاضِحَاتِ

فإنه (**يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**) لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

*و من جملة معلوماته حالى و حالكم و مقالى لكم فلو كنت متقولاً عليه مع علمه بذلك و قدرته على عقوبتى

لكان قدحا فى علمه و قدرته و حكمته كقوله:- (**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ**)

(**وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**)

حيث هم خسروا الإيمان بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و حيث فاتهم النعيم المقيم

و حيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح و فى مقابلة النعيم كل عذاب أليم

فخسروا أنفسهم و أهليهم يوم القيامة 52

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾
يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَعْبادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا وَإِنْ أَرْضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ
﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ
غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا فِيهَا لَهُمْ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا قَائِمُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾
وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول و ما جاء به

و أنهم يقولون -استعجالا للعذاب و زيادة تكذيب- (مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ؟

كقوله {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: 32]

يقول تعالى: (وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى) مضروب لنزوله و لم يأت بعد

(لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ) بسبب تعجيزهم لنا و تكذيبهم الحق

فلو آخذناهم بجهلهم لكان كلامهم أسرع لبلائهم و عقوبتهم و لكن - مع ذلك- فلا يستبطنون نزوله

(وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً) فجأة

* فإنه سيأتيهم فوقع كما أخبر الله تعالى لما قدموا لـ « بدر » بطرين مفاخرين طائنين أنهم قادرون على

مقصودهم فأهانهم الله و قتل كبارهم و استوعب جملة أشرارهم

و لم يبق فيهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا و نزل بهم

(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) هذا و إن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوي فإن أمامهم العذاب الأخرى

الذي لا يخلص منهم أحد منه سواء عُوِّجِلَ بعذاب الدنيا أو أُمِّهَل 53

(يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) في الدنيا و هو آتيهم لا محالة إما في الدنيا و إما في الآخرة

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) ليس لهم عنها معدل و لا متصرف قد أحاطت بهم من كل جانب

كما أحاطت بهم ذنوبهم و سيئاتهم و كفرهم و ذلك العذاب هو العذاب الشديد **54**

(يَوْمَ يَغْشَاهُمْ) يشملهم (الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذابا و شملكم العذاب كما شملكم الكفر و الذنوب.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [الأعراف: 41] وَقَالَ: {لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} [الزمر: 16]

وَقَالَ: {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ} [الأنبياء: 39] قَالَتِ النَّارُ تَغْشَاهُمْ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهِمْ وَ هَذَا أَبْلَغُ فِي الْعَذَابِ الْحِسِّيِّ.

(وَيَقُولُ دُوقُوا) جزاء (مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) —ه في الدنيا من الإشراك بالله و ارتكاب الجرائم و الآثام.

*تَهْدِيدٌ وَ تَقْرِيعٌ وَ تَوْبِيخٌ وَ هَذَا عَذَابٌ مَعْنَوِيٌّ عَلَى النَّفُوسِ كَقَوْلِهِ:

{يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ دُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: 48-49]

وَقَالَ {يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا

تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور: 13-16] **55**

أمر الله بالهجرة و ثواب الصابرين 56-60

(يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا) بي و صدقوا رسولي

إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان و عبادة الله وحده (إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ) فهاجروا إلى أرض الله الواسعة

(فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ) و أخلصوا العبادة لى وحدي

فأماكن العبادة و مواضعها واسعة و المعبود واحد و الموت لا بد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم

فيجازي من أحسن عبادته

* و جمع بين الإيمان و العمل الصالح بإنزاله الغرف العالية و المنازل الأنيقة الجامعة لما تشتهيهِ الأنفس و تلذ الأعين و أنتم فيها خالدون.

* وَ لِهَذَا لَمَّا ضَاقَ عَلَى الْمُسْتَضْعِفِينَ مَكَّةَ مَقَامَهُمْ بِهَا خَرَجُوا مُهَاجِرِينَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ لِيَأْمَنُوا عَلَى دِينِهِمْ هُنَاكَ فَوَجَدُوا هُنَاكَ خَيْرَ الْمَنْزِلَيْنِ أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَوَاهُمْ وَ أَيْدَهُمْ بِنَصْرِهِ وَ جَعَلَهُمْ شُيُومًا بِلَادِهِ.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَ أَصْحَابُهُ الْبَاقُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ يَثْرِبَ الْمُطَهَّرَةِ **56**

(كُلُّ نَفْسٍ) حية (ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

فَكُونُوا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ وَ لَا مَحِيدَ عَنْهُ

(ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) إلى الله المَرْجِعُ وَ الْمَآبُ فَمَنْ كَانَ مُطِيعًا لَهُ جَازَاهُ أَفْضَلَ الْجَزَاءِ وَ وَافَاهُ أَتَمَّ الثَّوَابِ **57**

وَ لِهَذَا قَالَ: {وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّتَنَّهُمْ} لَنُسَكِّنَنَّهُمْ (مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا) مَنَازِلَ عَالِيَةً فِي الْجَنَّةِ

(مَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) عَلَى اخْتِلَافٍ أَصْنَافِهَا مِنْ مَاءٍ وَ خَمْرٍ وَ عَسَلٍ وَ لَبَنٍ يَصْرِفُونَهَا وَ يَجْرُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا

{خَالِدِينَ فِيهَا} مَا كَثِيرٌ فِيهَا أَبَدًا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا

ف_____ (نعم) تلك المنازل في جنات النعيم (أَجْرُ الْعَمَلِينَ) لله

(الَّذِينَ صَبَرُوا) على عبادة الله (وَعَلَى رَبِّهِمْ) و على الله (يَتَوَكَّلُونَ) يعتمدون في أرزاقهم و جهاد أعدائهم.

فصبرهم على عبادة الله يقتضى :-

1- بذل الجهد و الطاقة فى ذلك 2- و المحاربة العظيمة للشيطان الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك

و توكلهم يقتضى :-

1- شدة اعتمادهم على الله 2- و حسن ظنهم به أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال و يكملها

* و نص على التوكل و إن كان داخلا فى الصبر لأنه يحتاج إليه في كل فعل و ترك مأمور به و لا يتم إلا به.

* ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ تَعَالَى أَنَّ الرِّزْقَ لَا يُخْتَصُّ بِبُقْعَةٍ بَلْ رَزَقَهُ تَعَالَى عَامًّا لِيَخْلُقَهُ حَيْثُ كَانُوا وَ أَيْنَ كَانُوا
بَلْ كَانَتْ أَرْزَاقُ الْمُهَاجِرِينَ حَيْثُ هَاجَرُوا أَكْثَرَ وَ أَوْسَعَ وَ أَطْيَبَ فَإِنَّهُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ صَارُوا حُكَّامَ الْبِلَادِ فِي سَائِرِ

الْأَقْطَارِ وَ الْأَمْصَارِ 59

اعتراف المشركين 61-63

(وَكَايْن) فكم (مِنْ دَابَّةٍ) فى الأرض ضعيفة القوى ضعيفة العقل.

(لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا) لا تدخره بل لم تزل لا شيء معها من الرزق ولا يزال الله يسخر لها الرزق في كل وقت بوقته.

(اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ) فكلكم عيال الله القائم برزقكم كما قام بخلقكم و تدبيركم

* اللَّهُ يُقَيِّضُ لَهَا رِزْقَهَا عَلَى ضَعْفِهَا وَ يُيسِّرُهُ عَلَيْهَا فَيَبْعَثُ إِلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنَ الرِّزْقِ مَا يُصْلِحُهُ حَتَّى الدَّرِّ فِي
قَرَارِ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ وَ الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هُود: 6]

* وَ قَدْ ذَكَرُوا أَنَّ الْغُرَابَ إِذَا فَقَسَ عَنْ فِرَاحِهِ الْبَيْضَ خَرَجُوا وَ هُمْ بَيْضٌ فَإِذَا رَأَوْهُمْ أَبَوَاهُمْ كَذَلِكَ نَفَرَا عَنْهُمْ
أَيَّامًا حَتَّى يَسْوَدَ الرِّيشُ فَيَظِلُّ الْفَرْخُ فَاتِحًا فَاهُ يَتَفَقَّدُ أَبَوَيْهِ فَيَقْيِضُ اللَّهُ لَهُ طَيْرًا صَغَارًا كَالْبَرْغَشِ فَيَغْشَاهُ
فَيَتَقَوَّتُ مِنْهُ تِلْكَ الْأَيَّامَ حَتَّى يَسْوَدَ رِيشُهُ وَ الْأَبْوَانُ يَتَفَقَّدَانِهِ كُلِّ وَ قَتَ فِكَلَّمَا رَأَوْهُ أَبْيَضَ الرِّيشِ نَفَرَا عَنْهُ
فَإِذَا رَأَوْهُ قَدْ اسْوَدَّ رِيشُهُ عَطَفَا عَلَيْهِ بِالْحَضَانَةِ وَ الرِّزْقِ وَ لِهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ:
يَا رَازِقَ النَّعَابِ فِي عَشِهِ ... وَ جَابِرَ الْعَظْمِ الْكَسِيرِ الْمَهِيضِ ...

(وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فلا يخفى عليه خافية و لا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه.

كما قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} 60

(وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية و العبادة و إلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية

(وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) ذلل

(لَيَقُولَنَّ اللَّهُ^ط) وحده و لا عَتَرُفُوا بعجز الأوثان و من عبوده مع الله على شيء من ذلك.

(فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) فكيف يصرفون عن الإيمان بالله خالق كل شيء و مدبره و يعبدون معه غيره؟

*فاعجب لإفكهم و كذبهم و عدولهم إلى من أقروا بعجزه و أنه لا يستحق أن يدبر شيئا

و سَجَّلَ عليهم بعدم العقل وأنهم السفهاء ضعفاء الأحلام

فهل تجد أضعف عقلا و أقل بصيرة ممن أتى إلى حجر أو قبر و نحوه و هو يدري أنه لا ينفع و لا يضر

و لا يخلق و لا يرزق ثم صرف له خالص الإخلاص و صافى العبودية و أشركه مع الرب الخالق الرازق النافع الضار.

و قل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال و أوضح بطلان ما عليه المشركون ليحذرهم الموفقون61

(اللَّهُ يَبْسُطُ) يوسع (الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) لمن يشاء من خلقه

(وَيَقْدِرُ لَهُ) يضيق على آخرين منهم لعلمه بما يصلح عباده

(إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ) من أحوالكم و أمورك

(عَلِيمٌ) لا يخفى عليه شيء62

(وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ) السحاب

(مَاءً فَاحْيَا) فأنبت (مَاءً بِهِ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا) من بعد جفافها. و من بيده تدبير جميع الأشياء؟

(لَيَقُولَنَّ^ط) لك معترفين (اللَّهُ) وحده هو الذى نزل ذلك

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) الذى أظهر حجتك عليهم

الذى خلق العالم العلوى و السفلى و قام بتدبيرهم و رزقهم و بسط الرزق على من يشاء

و ضيقه على من يشاء حكمة منه و لعلمه بما يصلح عباده و ما ينبغى لهم.

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) ما ينفعهم و لا ما يضرهم و لو عَقَلُوا ما أشركوا مع الله غيره.

*فَكَمَا أَنَّهُ الْوَاحِدُ فِي مُلْكِهِ فَلْيَكُنِ الْوَاحِدَ فِي عِبَادَتِهِ وَ كَثِيرًا مَا يُقَرَّرُ تَعَالَى مَقَامَ الْإِلَهِيَّةِ بِالْإِعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ

الرُّبُوبِيَّةِ. وَ قَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَّتِهِمْ

ما جاء في مسلم (1185) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-

كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ

قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيَدَّكُمْ قَدْ قَدْ»

فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَ مَا مَلَكٌ

يَقُولُونَ هَذَا وَ هُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ63

وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانِ^{٦٤} لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
 فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ^{٦٥}
 لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا فَسُوفَ يَعْلَمُونَ^{٦٦} أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِمَّا
 وَيَخْطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَا لَبِطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ^{٦٧}
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ^{٦٨} أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ
 وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ^{٦٩}

30-سورة الروم-بسم الله الرحمن الرحيم

الْم^١ غُلِبَتِ الرُّومُ^٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ^٣
 فِي بِضْعِ سِنِينَ^٤ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ^٥
 يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^٥

يخبر تعالى عن حالة الدنيا و الآخرة و فى ضمن ذلك التزهيد فى الدنيا و التشويق للأخرى فقال:-

حقيقة الدنيا و طبيعة الكفار فيها 64-67

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا) فى الحقيقة

(إِلَّا لَهْوٌ) تلهو بها القلوب

(وَلَعِبٌ) تلعب بها الأبدان بسبب ما فيها من الزينة و الشهوات ثم تزول سريعاً

(وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانِ^{٦٤}) الحياة الكاملة

التي من لوازمها:-

1-أن تكون أبدان أهلها فى غاية القوة و قواهم فى غاية الشدة لأنها أبدان و قوى خلقت للحياة

2-و أن يكون موجودا فيها كل ما تكمل به الحياة و تتم به اللذات من مفرحات القلوب و شهوات الأبدان من المأكول والمشارب و المناكح و غير ذلك مما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر.

(لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

لما آثروا الدنيا على الآخرة و لو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان و رغبوا فى دار اللهو و اللعب

فدل ذلك على أن الذين يعلمون لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا لما يعلمونه من حالة الدارين 64

(فَإِذَا رَكِبُوا) أى الكفار

(فِي الْفُلْكِ) و خافوا الغرق

(دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) و حَدَّوْا اللَّهَ و أخلصوا له في الدعاء حال شدتهم

(فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ) و زالت عنهم الشدة و نجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر

(إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) عادوا إلى شركهم أشركوا به من لا نجاهم من شدة و لا أزال عنهم مشقة.

فهلأ أخلصوا لله الدعاء في حال الرخاء و الشدة و اليسر و العسر ليكونوا مؤمنين به حقا مستحقين ثوابه مندفعاً عنهم عقابه. و لكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم بالنجاة من البحر

بقوله {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْنَاهُمْ} [الإشراء: 67] 65

(لِيَكْفُرُوا) ليكون عاقبته كفرهم (بِمَا آتَيْنَاهُمْ) و مقابلة النعمة بالإساءة

(وَلِيَتَمَنَّوْا) و ليكملوا تمتعهم في الدنيا الذي هو كتمتع الأنعام ليس لهم هم إلا بطونهم و فروجهم.

* هَذِهِ اللَّامُ يُسَمِّيهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ وَ التَّفْسِيرِ وَ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ (((لَامُ الْعَاقِبَةِ)))

لَأَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ ذَلِكَ وَلَا شَكَّ أَنَّهَا كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ

وَ أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَقْدِيرِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَ تَقْيِيزِهِ إِيَّاهُمْ لِذَلِكَ فَهِيَ لَامُ التَّعْلِيلِ.

وَ قَدْ قَدَّمْنَا تَقْرِيرَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [الْقَصَص: 8]

(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) فساد عملهم حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة شدة الأسف و أليم العقوبة 66

ثم امتن عليهم فقال:— (أَوَلَمْ يَرَوْا) أو لم يشاهد كفار «مكة»

(أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا) يأمن فيه أهله على أنفسهم و أموالهم

(وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ)

و الناس من حولهم يتخطفون و يخافون أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف.

* لِقَوْلِهِ {لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ

خَوْفٍ} [قُرَيْشٍ: 1-4]

(أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ) وهو ما هم عليه من الشرك و الأقوال و الأفعال الباطلة.

(وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ) هم (يَكْفُرُونَ) فأين ذهبت عقولهم و انسلخت أحلامهم 67

عقاب الكافرين و جزاء المحسنين 68-69

حيث آثروا:—

الضلال على الهدى و الباطل على الحق و الشقاء على السعادة و حيث كانوا أظلم الخلق.

(وَمَنْ أَظْلَمُ) لَا أَحَدَ أَشَدُّ عُقُوبَةً (مِمَّنْ افْتَرَى) اختلق (عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

1-فنسب ما هو عليه من الضلال و الباطل إلى الله

2-إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْهِ شَيْءٌ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ.

3-من ادعى فقال سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ.
فهو مُفْتَرٍ

(أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ) على يد رسوله محمد ﷺ و لكن هذا الظالم العنيد أمامه جهنم

(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى) مسكناً (لِلْكَافِرِينَ) لمن كفر بالله و جحد توحيده و كذب رسوله محمداً ﷺ 68

(وَالَّذِينَ) و المؤمنون (جَاهِدُوا فِيْنَا)

الذين جاهدوا أعداء الله و النفس و الشيطان و صبروا على الفتن و الأذى في سبيل الله
(لَنَهْدِيَنَّهُمْ) لنُبصرنهم

(سُبُلَنَا) الطرق الموصلة إلينا (طُرُقَنَا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ) و يثبتهم على الصراط المستقيم

(وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) بالعون و النصر و الهداية و الحفظ

دل هذا على أن:-

1-أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد

2-و على أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله و يسر له أسباب الهداية

3-و على أن من جد و اجتهد في طلب العلم الشرعي فإنه يحصل له من الهداية و المعونة على تحصيل
مطلوبه أمور إلهية خارجة عن مدرك اجتهاده و تيسر له أمر العلم

○ فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله بل هو أحد نَوْعَي الجهاد الذي لا يقوم به إلا خواص
الخلق و هو الجهاد بالقول و اللسان للكفار و المنافقين و الجهاد على تعليم أمور الدين

و على رد نزاع المخالفين للحق و لو كانوا من المسلمين 69

تفسير سورة الروم -مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

الوعد بالنصر للمؤمنين 1-7

(الْم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ)

هُمْ مِنْ سُلَالَةِ الْغِيصِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ وَ هُمْ أَبْنَاءُ عَمِّ بَرِي إِسْرَائِيلَ وَ يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو الْأَصْفَرِ.

(فِي آدْنَى الْأَرْضِ)

(ثبت علمياً بقياسات عديدة أن أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً هو:-

غور البحر الميت و يقع البحر الميت في أكثر أجزاء الغور انخفاضاً

حيث يصل مستوى منسوب سطحه إلى حوالى أربعمائة متر تحت مستوى سطح البحر

و يصل منسوب قاعه في أعماق أجزائه إلى قرابة الثمانمائة متر تحت مستوى سطح البحر)

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)

*الترمذى 3193- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {الْم * غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} [الروم: 2]
 قَالَ: غَلَبَتْ وَغَلَبَتْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ أَهْلُ فَارِسَ عَلَى الرُّومِ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ أَوْتَانٍ
 وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ فَذَكَرُوهُ لِأَبِي بَكْرٍ فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ
 اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ» فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ فَقَالُوا:

اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَ كَذَا وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا
 فَجَعَلَ أَجَلًا خَمْسَ سِنِينَ فَلَمْ يَظْهَرُوا فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ:- «أَلَا جَعَلْتُهُ إِلَى دُونَ» -
 قَالَ:- أَرَاهُ الْعَشْرَ قَالَ سَعِيدٌ:- وَ الْبِضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ -قَالَ:- ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدُ.

قَالَ:- فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:- {الْم غَلَبَتِ الرُّومُ} [الروم: 1]- إِلَى قَوْلِهِ- {يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ} [الروم: 4]
 قَالَ سُفْيَانُ: «سَمِعْتُ أَنَّهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ»

*البخارى 4767- عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ: خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ: الدُّخَانُ وَ الْقَمَرُ وَ الرُّومُ وَ الْبَطْشَةُ وَ اللَّزَامُ "
 {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} [الفرقان: 77]

*كانت الفرس و الروم فى ذلك الوقت من أقوى دول الأرض و كان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون
 بين الدول المتوازنة. و كانت الفرس مشركين يعبدون النار و كانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة
 والإنجيل وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس فكان المؤمنون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس
 و كان المشركون - لاشتراكهم و الفرس فى الشرك - يحبون ظهور الفرس على الروم.
 *فظهر الفرس على الروم فغلبوهم غالبا لم يحط بملكهم بل بأدنى أرضهم ففرح بذلك مشركو مكة و حزن
 المسلمون فأخبرهم الله و وعدهم أن الروم ستغلب الفرس 3

(فِي بَضْعِ سِنِينَ) تسع أو ثمان ونحو ذلك مما لا يزيد على العشر و لا ينقص عن الثلاث
 و أن غلبة الفرس للروم ثم غلبة الروم للفرس كل ذلك بمشيئته وقدره

و لهذا قال: (لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)

فليس الغلبة و النصر لمجرد وجود الأسباب و إنما هى لا بد أن يقترن بها القضاء و القدر.

(وَيَوْمَئِذٍ) يوم يغلب الروم الفرس و يقهرونهم

(يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ) ﴿٤﴾ يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴿٥﴾ يَفْرَحُونَ بَانْتِصَارِهِمْ عَلَى الْفَرَسِ
 و إن كان الجميع كفارا و لكن بعض الشر أهون من بعض و يحزن يومئذ المشركون.

(وَهُوَ الْكَافِرُ) الذى له العزة التى قهر بها الخلائق أجمعين

يؤتى الملك من يشاء و ينزع الملك ممن يشاء و يعز من يشاء و يذل من يشاء.

(الرَّحِيمُ)

بعباده المؤمنين حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم و تنصرهم ما لا يدخل في الحساب 5

.....

وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ يَنْفَكِرُوا فِي أَنْفُسِهِم ۖ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أُولَئِكَ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوْءَى ۚ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

(وَعَدَ اللَّهُ) وعد الله المؤمنين وعدًا جازمًا لا بد من وقوعه

(لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ) لا يتخلف بنصر الروم النصارى على الفرس الوثنيين

* فلما نزلت هذه الآيات التي فيها هذا الوعد صدق بها المسلمون و كفر بها المشركون حتى تراهن بعض المسلمين و بعض المشركين على مدة سنين عینوها فلما جاء الأجل الذي ضربه الله انتصر الروم على الفرس و أجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم و تحقق وعد الله و هذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها و وجدت في زمان من أخبرهم الله بها من المسلمين و المشركين.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أن ما وعد الله به حق - لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها.

فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله و يكذبون آياته 6

و إنما (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ظواهر الدنيا و زخرفها

فينظرون إلى الأسباب و يجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده

* و يتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها.

(وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ) قد توجهت قلوبهم و أهواؤهم و إراداتهم إلى الدنيا و شهواتها و حطامها

فعملت لها وسعت و أقبلت بها و أدبرت و غفلت عن الآخرة

* فلا الجنة تشاق إليها و لا النار تخافها و تخشاها و لا المقام بين يدي الله و لقائه يروعها و يزعجها
* و هذا علامة الشقاء و عنوان الغفلة عن الآخرة.

* و من العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة و الذكاء ففى ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول و يدهش الألباب و أظهروا من العجائب الذرية و الكهربائية و المراكب البرية و البحرية و الهوائية ما فاقوا به و برزوا و أعجبوا بعقولهم و رأوا غيرهم عاجزا عما أقدرهم الله عليه فنظروا إليهم بعين الاحتقار و الازدراء و هم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم وأشدهم غفلة عن آخرتهم و أقلهم معرفة بالعواقب
* قد رأهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخطون و فى ضلالهم يعمهون و فى باطلهم يترددون نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون.

* ثم نظروا إلى ما أعطاهم الله و أقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا و ظاهرها و ما حُرِّموا من العقل العالى فعرفوا أن الأمر لله و الحكم له فى عباده و إن هو إلا توفيقه و خذلانه فخافوا ربهم و سألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول و الإيمان حتى يصلوا إليه و يحلوا بساحته
* و هذه الأمور لو قارنها الإيمان و بنيت عليه لأثمرت الرقي العالى و الحياة الطيبة

و لكنها لما برى كثير منها على الإلحاد لم تثمر إلا :- هبوط الأخلاق و أسباب الفناء و التدمير **7**

دعوة للتفكير 8-10

(**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا**) أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله و لقائه

(**فِي أَنْفُسِهِمْ**) فإن فى أنفسهم آيات يعرفون بها أن الذى أوجدهم من العدم سيعيدهم بعد ذلك
و أن الذى نقلهم أطوارا من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمى قد نفخ فيه الروح إلى طفل إلى شاب إلى شيخ إلى هرم

غير لائق أن يتركهم سدى مهملين: - لا يبهون و لا يؤمرون و لا يثابون و لا يعاقبون

(**مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ**)

لإقامة العدل و الثواب و العقاب-ليبلكم أيكم أحسن عملا

(**وَأَجَلٍ مُّسَمًّى**)

مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضى به الدنيا و تجىء به القيامة و تبدل الأرض غير الأرض و السماوات

(**وَلِإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ**) فلذلك لم يستعدوا للقاءه و لم يصدقوا رسله التى أخبرت به

و هذا الكفر عن غير دليل بل الأدلة القاطعة قد دلت على البعث و الجزاء **8**

(**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**)

لهذا نبههم على السير في الأرض و النظر فى عاقبة الذين كذبوا رسلهم و خالفوا أمرهم

(كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً) ممن هم أشد من هؤلاء قوة

(وَأَنَارُوا الْأَرْضَ) قلبوها للحرث و الغرس و الإنشاء و التعمير (بناء قصور و مصانع) و إجراء أنهار

(وَعَمَرُوهَا) فَعَمَرُوا دنياهم (أَكْثَرُ مِمَّا عَمَرُوهَا) عَمَر أهل «مكة» دنياهم

(وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ^ط)

فلم تغن عنهم قوتهم و لا نفعتهم آثارهم حين كذبوا رسلهم الذين جاءوهم بالبينات الدالات على الحق وصحة ما جاءوهم به فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك لم يجدوا إلا أمما بائدة وخلقاً مهلكين و منازل بعدهم موحشة و ذم من الخلق عليهم متتابع. و هذا جزاء معجل نموذج للجزاء الأخروي و مبتدأ له.

كل هذه الأمم المهلكة (فَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ)

لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك و إنما ظلموا أنفسهم و تسبوا في هلاكها.

(وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) بالله شرك و العصيان 9

(ثُمَّ كَانَ عِقَابَ الَّذِينَ آسَفُوا) أهل السوء من الطغاة و الكفرة

(السَّوْءِ) أسوأ العواقب و أقبحها- الحالة السيئة الشنيعة

قوله {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام: 110]

و قوله: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: 5] {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمَ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ} [المائدة: 49]

و صار ذلك داعياً لهم لـ (أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ) لتكذيبهم بالله

(وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ) سخرتهم بآياته التي أنزلها على رسله فهذا عقوبة لسوئهم و ذنوبهم.

*ثم ذلك الاستهزاء و التكذيب يكون سبباً: - لأعظم العقوبات و أعضل المثالات 10

(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) يخبر تعالى أنه المتفرد بإبداء المخلوقات ثم يعيدهم

(ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) يرجعون بعد إعادتهم ليجازيهم بأعمالهم 11

اثبات البعث و احوال الناس 11-16

و لهذا ذكر جزاء أهل الشر ثم جزاء أهل الخير فقال:-

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ) يقوم الناس لرب العالمين و يردون القيامة عيانا

يومئذ (يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ) ييأسون من كل خير.

و ذلك أنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجرام و هى الذنوب من :- كفر و شرك و معاصي

* فلما قدموا أسباب العقاب و لم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب أيسوا و أبلسوا و أفلسوا

و ضل عنهم ما كانوا يفترونه من نفع شركائهم و أنهم يشفعون لهم **12**

و لهذا قال: (**وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ**) التي عبدوها مع الله

(**شُفَعَاتُهُ**) بل إنها تتبرأ منهم

* مَا شَفَعَتْ فِيهِمُ الْآلِهَةُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ كَفَرُوا بِهِمْ وَ حَانُواهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِمْ.

(**وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ**) تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله وتبرأ المعبودون وقالوا:

(**تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ**) و التعنوا و ابتعدوا **13**

(**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ**) يفترق أهل الخير و الشر كما افترت أعمالهم في الدنيا.

* هـ ي- وَ اللَّهِ الْفُرْقَةُ الَّتِي لَا اجْتِمَاعَ بَعْدَهَا يَعْرِى-:

إِذَا رُفِعَ هَذَا إِلَى عَلِيِّينَ وَ خُفِضَ هَذَا إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ فَذَاكَ آخِرُ الْعَهْدِ بَيْنَهُمَا **14**

وَ لِهَذَا قَالَ:- (**فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا**) آمنوا بقلوبهم (**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) و صدقوا ذلك بالأعمال الصالحة

(**فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ**) روضة من رياض الجنة فيها سائر أنواع النبات و أصناف المشتريات

(**يُحِبُّونَ**) أى: يسرون و ينعمون بـ: — المآكل اللذيذة و الأشربة و الحور الحسان و الخدم

والولدان والأصوات المطربات والسماع المشجى و المناظر العجيبة و الروائح الطيبة و الفرح و السرور و اللذة

و الحبور مما لا يقدر أحد أن يصفه **15**

.....

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ

﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴿٢١﴾

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكْمُ ﴿٢٣﴾

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴿٢٥﴾

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا

وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٧﴾

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) و جحدوا نعمه و قابلوها بالكفر (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) التي جاءتهم بها رسلنا

(وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) مقيمون جزاء ما كذبوا به في الدنيا

قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم و أطلع العذاب الأليم على أفئدتهم و شوى الحميم وجوههم

و قطع أمعاءهم فأين الفرق بين الفريقين و أين التساوى بين المنعمين و المعذبين؟ 16

التنزيه و التحميد لله 17-29

(فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ)

هذا إخبار عن تنزيهه عن السوء و النقص و تقدسه عن أن يماثله أحد من الخلق و أمر للعباد أن يسبحوه حين يمسون و حين يصبحون و وقت العشي و وقت الظهيرة.

○ فهذه الأوقات الخمسة أوقات الصلوات الخمس أمر الله عباده بالتسبيح فيها و الحمد

و يدخل في ذلك الواجب منه :-

كالمشتملة عليه الصلوات الخمس و المستحب كأذكار الصباح و المساء و أدبار الصلوات و ما يقترن بها من النوافل

لأن هذه الأوقات التي اختارها الله لأوقات المفروضات هي أفضل من غيرها فالتسبيح و التحميد فيها والعبادة

فيها أفضل من غيرها بل العبادة و إن لم تشتمل على قول « سبحان الله »

فإن الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل أن يكون له شريك في العبادة أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه من

الإخلاص والإنابة **17**

(**وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا**) * **فَالْعِشَاءُ هُوَ**:- **شِدَّةُ الظَّلَامِ**

فَسُبْحَانَ خَالِقِ هَذَا وَ هَذَا فَالِقِ الْإِصْبَاحِ وَ جَاعِلِ اللَّيْلِ سَكَنًا كَمَا قَالَ: {وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَاهَا* وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} [الشمس: 43] وَ قَالَ {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [الليل: 21] وَ قَالَ: {وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [الضحى: 21]

(**وَرَجِئَ تَظْهِرُونَ**) وَ **الْإِظْهَارُ**: **قُوَّةُ الضِّيَاءِ 18**

(**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ**)

يخرج النبات من الأرض الميتة والسنبلة من الحبة و الشجرة من النواة و الفرخ من البيضة و المؤمن من الكافر ونحو ذلك.

(**وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**) بعكس المذكور

(**وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**)

فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت و ربت وأنبتت من كل زوج بهيج
قوله: {وَأَيُّ لَهِمُ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ} [يس: 33-34]

وَ لِهَذَا قَالَ هَاهُنَا:- (**وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ**) من قبوركم.

فهذا دليل قاطع وبرهان ساطع أن الذي أحيا الأرض بعد موتها فإنه يحيي الأموات
فلا فرق في نظر العقل بين الأميين ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية وكمال عظمتة ونفوذ مشيئته وقوة اقتداره وجميل صنعته
وسعة رحمته وإحسانه **19**

(**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ**) و ذلك بخلق أصل النسل آدم عليه السلام

* **فَأَصْلُكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ تَصَوَّرَ فَكَانَ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً ثُمَّ صَارَ عِظَامًا شَكْلُهُ عَلَى شَكْلِ الْإِنْسَانِ ثُمَّ كَسَا اللَّهُ تِلْكَ الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ فَإِذَا هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ.**
ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ صَغِيرًا ضَعِيفَ الْقُوَى وَ الْحَرَكَةِ ثُمَّ كَلَّمَا طَالَ عُمُرُهُ تَكَامَلَتْ قُوَاهُ وَ حَرَكَاتُهُ حَتَّى آلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى أَنْ صَارَ يَبْنِي الْمَدَائِنَ وَ الْحُصُونِ وَ يُسَافِرُ فِي أَقْطَارِ الْأَقَالِيمِ
وَ يَرْكَبُ مَتْنِ الْبُحُورِ وَ يَدُورُ أَقْطَارَ الْأَرْضِ وَ يَتَكَسَّبُ وَ يَجْمَعُ الْأَمْوَالَ
وَ لَهُ فِكْرَةٌ وَ غَوْرٌ وَ دِهَاءٌ وَ مَكْرٌ وَ رَأْيٌ وَ عِلْمٌ وَ اتِّسَاعٌ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ كُلِّ بِحَسَبِهِ.
فَسُبْحَانَ مَنْ أَقْدَرَهُمْ وَسَيَّرَهُمْ وَ صَرَّفَهُمْ فِي فُنُونِ الْمَعَاشِشِ وَ أَلَمَ كَسِبِ وَ قَاوَتْ بَيْنَهُمْ فِي الْعُلُومِ
وَ الْفِكْرَةِ وَ الْحُسْنِ وَ الْقُبْحِ وَ الْغِنَى وَ الْفَقْرِ وَ السَّعَادَةِ وَ الشَّقَاوَةِ

على كثرتمكم و تباينكم مع أن الأصل واحد و مخارج الحروف واحدة

و مع ذلك لا تجد صوتين متفقيين من كل وجه و لا لونين متشابهين من كل وجه إلا و تجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز.

و هذا دال على كمال قدرته و نفوذ مشيئته.

و من عنايته بعباده ورحمته بهم أن قدر ذلك الاختلاف لئلا يقع التشابه فيحصل الاضطراب و يفوت كثير من المقاصد و المطالب.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ)

و الْعَالَمُونَ هم: -أهل العلم الذين يفهمون العبر ويتدبرون الآيات.

و الآيات في ذلك كثيرة: -فمن آيات خلق السماوات و الأرض و ما فيهما

أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة و كمال حكمته لما فيها من الإتقان وسعة علمه لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) و عموم رحمته وفضله لما فى ذلك من المنافع الجليلة

و أنه المريد الذي يختار ما يشاء لما فيها من التخصيصات و المزايا و أنه وحده الذي يستحق أن يعبد و يوحد لأنه المنفرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة

فكل هذه أدلة عقلية نبه الله العقول إليها و أمرها بالتفكر و استخراج العبرة منها **22**

(وَمِنْ آيَاتِهِ) دلائل هذه القدرة

(مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

أن جعل الله النوم راحة لكم في الليل أو النهار إذ في النوم حصول الراحة و ذهاب التعب

(وَأَبْنَعَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ) و جعل لكم النهار تنتشرون فيه لطلب الرزق

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

سماع تدبر و تعقل للمعاني و الآيات في ذلك.

إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى كما قال:-

(وَمِنْ رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

و على تمام حكمته إذ حكمته اقتضت:-

سكون الخلق في وقت ليستريحوا به و يستجموا (الليل) و انتشارهم فى وقت لصالحهم الدينية و الدنيوية (النهار)

و لا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل و النهار عليهم و المنفرد بذلك هو المستحق للعبادة **23**

(**وَمِنْ آيَاتِهِ**) أن ينزل عليكم المطر الذي تحيا به البلاد و العباد

و (**يُرِيكُمْ الْبَرْقَ**) قبل نزول المطر و يليه الرعد

(**خَوْفًا**) الذي يُخَافُ ([فتخافون من الصواعق])

(**وَطَمَعًا**) و يُطْمَعُ فِي ————— هـ ([أى فى المطر])

(**وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**)

بَعْدَمَا كَانَتْ هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا وَ لَا شَيْءَ فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَاءُ { اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ } وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ { [الحَجَّ: 5] } .
وَ فِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ وَ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى الْمَعَادِ وَ قِيَامِ السَّاعَةِ وَ لِهَذَا قَالَ:-

(**إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ**)

دالة على عموم إحسانه و سعة علمه وكمال إتقانه وعظيم حكمته و أنه يحيي الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها.

(**لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**) لهم عقول تعقل بها ما تسمعه و تراه و تحفظه و تستدل به على ما جعل دليلا عليه **24**

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ

وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ

فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَ هُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَن أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾

فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۖ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ

ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِن أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

❖ مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا ۚ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

(وَمِنْ آيَاتِهِ) العظيمة الدالة على قدرته (أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ)

قيام السماء والأرض واستقرارهما وثباتهما بأمره فلم تتزلزلا و لم تسقط السماء على الأرض

قَوْلُهُ: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [الْحَجَّ: 65] - {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا} [فَاطِر: 41]

وَ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ۚ إِذَا اجْتَهَدَ فِي الْيَمِينِ يَقُولُ:-

لَا وَ الَّذِي تَقُومُ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ أَي:- هِيَ قَائِمَةٌ ثَابِتَةٌ بِأَمْرِهِ لَهَا وَ تَسْخِيرِهِ إِيَّاهَا

(ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ) إلى البعث يوم القيامة و هِيَ نفخة إسرافيل.

(دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ) من القبور مسرعين.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} [الْإِسْرَاء: 52] 25

(وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) الكل خلقه و ممتلكه المتصرف فيهم من غير منازع و لا معاون و لا معارض

(كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ) منقادون لأمره خاضعون لكماله 26

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ) الإعادة للخلق بعد موتهم

(أَهْوَبُ عَلَيْهِ) أيسر عليه

* البخارى 4974 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ۖ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ وَ شَتَمَنِي وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ

فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَ لَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ

وَ أَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَ أَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُوَلَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لِي كُفْتًا أَحَدٌ "

*من ابتداء خلقهم و هذا بالنسبة إلى الأذهان و العقول فإذا كان قادرا على الابتداء الذي تقرون به كانت قدرته على الإعادة التي أهون أولى و أولى.

*و لما ذكر من الآيات العظيمة ما به يعتبر المعبرون و يتذكر المؤمنون و يتبصر المهتدون ذكر الأمر العظيم

و المطلب الكبير فقال: **(وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)**

له سبحانه الوصف الأعلى في كل ما يوصف به ليس كمثله شيء و هو السميع البصير هَوَلِهِ:

{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11]

*و هو كل صفة كمال و الكمال من تلك الصفة و المحبة و الإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين

و الذكر الجليل و العبادة منهم فالمثل الأعلى هو وصفه الأعلى و ما ترتب عليه.

*و لهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى فيقولون:-

كل صفة كمال في المخلوقات فخالقها أحق بالتصاف بها على وجه لا يشاركه فيها أحد و كل نقص في المخلوق ينزه عنه فتزبه الخالق عنه من باب أولى و أخرى.

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) له العزة الكاملة فعزته أوجد بها المخلوقات و أظهر المأمورات

(الْحَكِيمُ) له الحكمة الواسعة و حكمته أتقن بها ما صنعه و أحسن فيها ما شرعه **27**

(ضَرَبَ) الله **(لَكُمْ مَثَلًا)** -أيها المشركون- تَشْهَدُونَهُ وَ تَفْهَمُونَهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى حُلٍ وَ تَرَحَالٍ وَ إِعْمَالِ الْجَمَالِ **(مَنْ أَنْفُسِكُمْ)**:-

(هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) هل أحد من عبيدكم و إمائكم الأرقاء

(مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ) يشارككم في رزقكم

(فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) و ترون أنكم و هم فيه على حد سواء.

(تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) كما تخافون الأحرار الشركاء في مقاسمة أموالكم؟

إنكم لن ترضوا مساواة ممالككم لكم... فكيف ترضون بذلك في جنب الله بأن تجعلوا له شريكاً من خلقه؟

*هذا من أعجب الأشياء و من أدل شيء على:-

1-سفه من اتخذ شريكا مع الله 2-و أن ما اتخذه باطل مضمحل ليس مساويا لله و لا له من العبادة شيء.

(كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ) بتوضيحها بأمثلتها

(لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الحقائق و يعرفون)

* و أما من لا يعقل فلو فُصِّلَتْ له الآيات و بينت له البينات لم يكن له عقل يبصر به ما تبين و لا لُبُّ يعقل به ما توضح فأهل العقول و الأبواب هم الذين يساق إليهم الكلام و يوجه الخطاب.

* و إذا علم من هذا المثال أن من اتخذ من دون الله شريكا يعبد و يتوكل عليه ففى أموره

فإنه ليس معه من الحق شئ فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل توضح له بطلانه و ظهر برهانه؟ 28

لقد أوجب لهم ذلك اتباع الهوى فهذا قال:-(بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) المشركون

(أَهْوَاءَهُمْ) فِي عِبَادَتِهِمْ الْأَنْدَادَ بِتَقْلِيدِ آبَائِهِمْ (بِغَيْرِ عِلْمٍ) فشاركوهم في الجهل و الضلالة

و هويت أنفسهم الناقصة التي ظهر من نقصانها ما تعلق به هواها أمرا يجزم العقل بفساده و الفطر برده بغير علم دلهم عليه و لا برهان قادم إليهم.

(فَمَنْ يَهْدِي) لا أحد يقدر على هداية (مَنْ أَضَلَّ) —هـ (الله) بسبب تماديه في الكفر و العناد

لا تعجبوا من عدم هدايتهم فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم و لا طريق لهداية من أضل الله لأنه ليس أحد معارضا لله أو منازعا له في ملكه.

(وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ) ينصرونهم حين تحقق عليهم كلمة العذاب و تنقطع بهم الوصل و الأسباب 29

* يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال و إقامة دينه فقال:-

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ) انصبه و وجهه إلى الدين الذى هو:-

الإسلام و الإيمان و الإحسان بأن تتوجه بقلبك و قصدك و بدنك إلى:-

إقامة شرائع الدين الظاهرة ك:- الصلاة و الزكاة و الصوم و الحج و نحوها.

و شرائعه الباطنة ك:- المحبة و الخوف و الرجاء و الإنابة

و الإحسان ففى الشرائع الظاهرة و الباطنة بأن:- تعبد الله فيها كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

* كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: - {وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ} [الأعراف: 172]

*م سلم (2865) عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ:-

أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمَ هَذَا كُلِّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَّالٌ وَ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَ إِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَاثَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَ حَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ لَهُمْ وَ أَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا

*خص الله إقامة الوجه لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب و يترتب على الأمرين سعى البدن

و لهذا قال: (لِلدِّينِ حَنِيفًا) مقبلا على الله ففى ذلك معرضا عما سواه.

و هذا الأمر الذي أمرناك به هو

(فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) و وضع فى عقولهم حسنها و استقباح غيرها

فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة و الباطنة قد وضع الله فى قلوب الخلق كلهم الميل إليها فوضع فى قلوبهم محبة الحق و إثبات الحق و هذا حقيقة الفطرة.

* و من خرج عن هذا الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها كما قال النبي ﷺ:

«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) لا أحد يبدل خلق الله فيجعل المخلوق على غير الوضع الذى وضعه الله

*مَعْنَاهُ لَا تُبَدِّلُوا خَلْقَ اللَّهِ فَتَغَيِّرُوا النَّاسَ عَنْ فِطْرَتِهِمُ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا.

فَيَكُونُ خَبْرًا بِمَعْنَى الطَّلَبِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [آلِ عِمْرَانَ: 97]

*وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ خَبْرٌ عَلَى بَابِهِ

وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ تَعَالَى سَاوَى بَيْنَ خَلْقِهِ كُلِّهِمْ فِي الْفِطْرَةِ عَلَى الْجِبَلَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ لَا يُؤَلَّدُ أَحَدٌ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ

وَلَا تَفَاوَتْ بَيْنَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ: {لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}: لِإِدْنِ اللَّهِ

*البخارى 4775 - عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُؤَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ يَنْصَرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسَانِهِ

كَمَا تَنْتَجِجُ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»

ثُمَّ يَقُولُ: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [الروم: 30]

(ذَلِكَ) الذى أمرنا به

(الدِّينُ الْقَيِّمُ) الطريق المستقيم الموصل إلى الله و إلى كرامته فإن من أقام وجهه للدين حنيفا

فإنه سالك الصراط المستقيم في جميع شرائعه و طرقه

(وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

فلا يتعرفون الدين القيم و إن عرفوه لم يسلكوه.

*فَلِهَذَا لَا يَعْرِفُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ فَهُمْ عَنْهُ نَاكِبُونَ لِقَوْلِهِ {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يُوسُفَ: 103]

{وَأَنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنعام: 116] 30

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ) راجعين إليه (وَأَتَّقُوهُ) خافوه و راقبوه

* و هذا تفسير لإقامة الوجه للدين فإن الإنابة إنابة القلب و انجذاب دواعيه لمراضى الله تعالى.

و يلزم من ذلك حمل البدن بمقتضى ما في القلب فشمّل ذلك العبادات الظاهرة و الباطنة

و لا يتم ذلك إلا بترك المعاصى الظاهرة و الباطنة

فلذلك قال:- (وَأَتَّقُوهُ) فهذا يشمل فعل المأمورات و ترك المنهيات.

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) خص من المأمورات الصلاة لكونها تدعو إلى الإنابة و التقوى لقوله تعالى:-

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) فهذا إعانتها على التقوى.

ثم قال: (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) فهذا حثها على الإنابة.

و خص من المنهيات أصلها و الذى لا يقبل معه عمل و هو الشرك فقال:-

(وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) لكون الشرك مضادا للإنابة التى روحها الإخلاص من كل وجهه 31

ثم ذكر حالة المشركين مهجنا لها و مقبحا فقال:- (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ)

فصنمهم من يعبد الأوثان و الأصنام و منهم من يعبد الشمس و القمر و منهم من يعبد الأولياء و الصالحين و منهم يهود و منهم نصارى.

مع أن الدين واحد و هو إخلاص العبادة لله وحده و هؤلاء المشركون

و لهذا قال: (وَكَانُوا شِيعًا)

كل فرقة من فرق الشرك تألفت و تعصبت على نصر ما معها من الباطل و منابذة غيرهم و محاربتهم.

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ) من العلوم المخالفة لعلوم الرسل

(فَرِحُونَ) به يحكمون لأنفسهم بأنه الحق و أن غيرهم على باطل

و في هذا تحذير للمسلمين من تشتهم و تفرقهم فرقا كل فريق يتعصب لما معه من حق و باطل

فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرق بل الدين واحد و الرسول واحد و الإله واحد.

و أكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع بين العلماء و الأئمة و الأخوة الإيمانية قد عقدها الله و ربطها أتم ربط

*فما بال ذلك كله يُلغى و يُبنى التفرق و الشقاق بين المسلمين على مسائل خفية أو فروع خلافية يضل بها

بعضهم بعضا و يتميز بها بعضهم عن بعض؟

*فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان و أعظم مقاصده التي كاد بها للمسلمين؟

*و هل السعى في جمع كلمتهم و إزالة ما بينهم من الشقاق المبني على ذلك الأصل الباطل

إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله و أفضل الأعمال المقربة إلى الله؟ 32

*و لما أمر تعالى بالإنابة إليه - و كان المأمور بها هي الإنابة الاختيارية التي تكون في حالي العسر و اليسر

و السعة و الضيق- ذكر الإنابة الاضطرارية التى لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه و كربه فإذا زال عنه الضيق

نبذها وراء ظهره و هذه غير نافعة فقال:

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾
 لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ
 ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾
 أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾
 فَآتَ ذَا الْقُرْنَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
 وَمَاءَ آتَيْنَاهُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَاءَ آتَيْنَاهُمْ مِنْ زَكَاةٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ
 هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ كُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾
 ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

طبيعة الناس في السراء و الضراء 33-37

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ) مرض أو خوف من هلاك و نحوه.

(دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ) مخلصين له أن يكشف عنهم الضر

و نسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله.

(ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً) شفاهم من مرضهم و آمنهم من خوفهم

(إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ) ينقضون تلك الإنابة التي صدرت منهم

(بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

يعودون إلى الشرك مرة أخرى فيعبدون مع الله غيره من لا دفع عنهم و لا أغنى و لا أفقر و لا أغنى و كل هذا كفر بما آتاهم الله و مَنْ به عليهم حيث أنجاهم و أنقذهم من الشدة و أزال عنهم المشقة

فهلأ قابلوا هذه النعمة الجليلة بالشكر و الدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال؟ 33

(لِيَكْفُرُوا) هـ ي لَامُ الْعَاقِبَةِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ وَ لَامُ التَّعْلِيلِ عِنْدَ آخَرِينَ وَ لَكِنَّهَا تَعْلِيلٌ لِتَقْيِيزِ اللَّهِ لَهُمْ ذَلِكَ.

(بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا) -أيها المشركون- بالرءاء و السعة في هذه الدنيا

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) ما تلقونه من العذاب و العقاب.

قَالَ بَعْضُهُمْ: وَ اللَّهِ لَوْ تَوَعَّدَنِي حَارِسٌ دَرْبٍ لَخِفْتُ مِنْهُ فَكَيْفَ وَ الْمُتَوَعَّدُ هَاهُنَا هُوَ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ:-

كُنْ فَيَكُونُ 34

(أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا) حجة ظاهرة و كتابًا قاطعًا (فَهُوَ) ذلك السلطان (يَتَكَلَّمُ) ينطق (بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ؟)

ينطق بصحة شركهم و كفرهم بالله وآيات- وَ هَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارٍ أَيْ: لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ 35

يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس في حال الرخاء و الشدة أنهم:-

(وَلِذَا أَذَقْنَا) أى: الله (النَّاسَ) منه (رَحْمَةً) من صحة و غنى و نصر و نحو ذلك

(فَرِحُوا بِهَا) فرح بطر لا فرح شكر بنعمة الله

(وَلِإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ) حال تسوؤهم و ذلك (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) من المعاصى

(إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ) ييأسون من زوال ذلك الفقر و المرض و نحوه. و هذا جهل منهم و عدم معرفة.

*مسلم :- (2999) عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَ لَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» 36

(أَوَلَمْ يَرَوْا) أو لم يعلموا (أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ) يوسع الرزق (الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ) امتحانًا هل يشكر أو يكفر؟

(وَيَقْدِرُ) يضيِّقه على من يشاء اختبارًا هل يصبر أو يجزع؟

فالقنوط بعد ما علم أن الخير و الشر من الله و الرزق سعته و ضيقه من تقديره ضائع ليس له محل.

فلا تنظر أيها العاقل لمجرد الأسباب بل اجعل نظرك لمسببها

و لهذا قال: (إِنَّ فِي ذَلِكَ) التوسيع و التضيق

(لَا يَسْتَلْقِي لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) بالله و يعرفون حكمة الله و رحمته.

فهم الذين يعتبرون بسط الله لمن يشاء و قبضه و يعرفون بذلك حكمة الله و رحمته و جوده

و جذب القلوب لسؤاله في جميع مطالب الرزق 37

الحض على أداء الحقوق و النهي عن الربا 38-39

(فَأَتَتْ) فأعطت (ذَا الْقُرْبَى) القريب منك- على حسب قربه و حاجته- (حَقَّهُ) الذى أوجبه الشارع

*أو حض عليه من :-

النفقة الواجبة و الصدقة و الهدية و البر و السلام و الإكرام و العفو عن زلته و المسامحة عن هفوته.

(وَ) كذلك آت (وَالْمَسْكِينِ)

الذى أسكنه الفقر و الحاجة ما تزيل به حاجته و تدفع به ضرورته من إطعامه و سقيه و كسوته.

(وَأَبْنِ السَّبِيلَ) الغريب المنقطع به في غير بلده الذي في مظنة شدة الحاجة

لأنه لا مال معه و لا كسب قد دبر نفسه به فى سفره بخلاف الذي في بلده فإنه و إن لم يكن له مال

و لكن لا بد - في الغالب- أن يكون في حرفة أو صناعة و نحوها تسد حاجته
و لهذا جعل الله في الزكاة حصة للمسكين و ابن السبيل.

(ذَلِكَ) إيتاء ذي القربى و المسكين و ابن السبيل

(خَيْرٌ) غزير و ثواب كثير

(لَلَّذِينَ يُرِيدُونَ) بذلك العمل

(وَجْهَ اللَّهِ) النَّظَرُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ هُوَ الْعَايَةُ الْقُصْوَى

لأنه من أفضل الأعمال الصالحة و النفع المتعدى الذى وافق محله المقرون به الإخلاص.

فإن لم يرد به وجه الله لم يكن خيرا لِلْمُعْطَى و إن كان خيرا و نفعاً لِلْمُعْطَى

كما قال تعالى: (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

مفهومها أن هذه المشتات خير لنفعها المتعدى و لكن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما.

(وَأُولَئِكَ) الذين عملوا هذه الأعمال و غيرها لوجه الله

(هُمْ الْمَفْلُحُونَ) دُنْيَا وَ آخِرَةً -الفائزون بثواب الله الناجون من عقابه 38

* و لما ذكر العمل الذى يقصد به وجهه من النفقات ذكر العمل الذى يقصد به مقصد دنيوى فقال:-

(وَمَا آتَيْتُمْ) أعطيتهم (مِنْ رَبِّا) أموالكم الزائدة عن حوائجكم

و قصدكم بذلك (لِيَرْبُوا) يزيد (فِي أَمْوَالِ النَّاسِ) بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها

(فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ)

فهذا العمل لا يربو أجره عند الله لكونه معدوم الشرط الذى هو الإخلاص.

و مثل ذلك العمل الذى يراد به الزيادة في الجاه و الرياء عند الناس فهذا كله لا يربو عند الله.

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ)

مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة و يطهر أموالكم من البخل بها و يزيد في دفع حاجة الْمُعْطَى.

*الصدقة مع اضطرار من يتعلق بالمنفق أو مع دَيْنٍ عليه لم يقضه و يقدم عليه الصدقة أن ذلك ليس بركة يؤجر

عليه العبد و يرد تصرفه شرعا كما قال تعالى في الذى يمدح:- (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى)

فليس مجرد إيتاء المال خيرا حتى يكون بهذه الصفة و هو:- أن يكون على وجه يتزكى به المؤمن.

*مَنْ أَعْطَى عَطِيَّةً يُرِيدُ أَنْ يَرُدَّ النَّاسُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِمَّا أَهْدَى لَهُمْ فَهَذَا لَا ثَوَابَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ

و هَذَا الصَّنِيعُ مُبَاحٌ وَ إِنْ كَانَ لَا ثَوَابَ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً

وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ: {وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} [الْمُدَّثِّرُ: 6] أَيْ: لَا تُعْطِ الْعَطَاءَ تُرِيدُ أَكْثَرَ مِنْهُ.

* وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الرَّبَّاءُ رِبَاءٌ إِنْ قَرَّبًا لَا يَصْحُ يَعْرِى: رَبَّاءُ الْبَيْعِ؟
وَرَبَّاءٌ لَا بَأْسَ بِهِ وَهُوَ هَدِيَّةُ الرَّجُلِ يُرِيدُ فَضْلَهَا وَأَضْعَافَهَا. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ:
{وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ}.

* وَإِنَّمَا الثَّوَابُ عِنْدَ اللَّهِ فِي الزَّكَاةِ وَلِهَذَا قَالَ: {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}
أَيْ: الَّذِينَ يُضَاعِفُ اللَّهُ لَهُمُ الثَّوَابَ وَالْجَزَاءَ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ:

* البخارى 1410 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدَلٍ (بوزن أو بقيمة) ثَمَرَةً مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ (حلال) وَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ وَ إِنْ اللَّهُ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ
ثُمَّ يَرْبِّيَهَا (ينميها) لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ (مهرة و هو الصغير من الخيل) حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ

(يصبح ثوابها كنواب من تصدق بمقدار الجبل من المال)

(تُرِيدُونَ) بذلك

(وَجْهَ اللَّهِ) (النَّظَرُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ هُوَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى

من أدلة التوحيد و نتائج عمل البشر 40-42

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ))

المضاعف لهم الأجر الذين تربو نفقاتهم عند الله و يربوها الله لهم حتى تكون شيئا كثيرا 39

(اللَّهُ) تعالى هو (الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ) وحده المنفرد بخلقكم و رزقكم و إِمَاتتكم و إحيائكم

* يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ غُرِيَانًا لَا عِلْمَ لَهُ وَ لَا سَمْعَ وَ لَا بَصَرَ وَ لَا قُوَى ثُمَّ يَرْزُقُهُ جَمِيعَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ
وَ الرِّيَاشَ وَ اللِّبَاسَ وَ الْمَالَ وَ الْأَمْلاكَ وَ الْمَكَاسِبَ

(ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) بعد هذه الحياة

(ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) يوم القيامة

(هَذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ) الخلق و الاماتة و الاحياء و البعث و الجزاء (مِنْ شَيْءٍ))

* ليس أحد من الشركاء التي يدعوههم المشركون من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء.

* فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟!

(سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى) تقديس و تنزه و علا (عَمَّا يُشْرِكُونَ) أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ مَسَاوٍ أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ

فلا يضره ذلك و إنما وبالهم عليهم 40

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) استعلن الفساد في البر و البحر

فساد معاشهم و نقصها و حلول الآفات بها و فنى أنفسهم من الأمراض و الوباء و انقطاع المطر عن البرِّ
يُعْقِبُهُ الْقَحْطُ وَ عَنِ الْبَحْرِ يَعْنِي دَوَابُّهُ وَ بَانَ النِّقْصُ فِي الثَّمَارِ وَ الزُّرُوعِ بِسَبَبِ الْمَعَاصِي.

وَ السَّبَبُ فِي هَذَا: أَنَّ الْحُدُودَ إِذَا أُقِيمَتْ انْكَفَتْ النَّاسُ-أَوْ أَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ-عَنْ تَعَاطِي الْمُحَرَّمَاتِ

ما أظفَكَ وما أحلمَكَ ربنا، وما أرحمَكَ بعبادِكَ الضعفاء، اللهم خُذْ بنواصينا
إليك؛ أُنْخِذْ الكرامَ عليك.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ^{٤٣} كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ^{٤٢}
 فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ^{٤٤} مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ^{٤٣} مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ^{٤٤}
 وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ^{٤٤} لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ^{٤٥}
 إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ^{٤٥} وَمَنْ ءَايَنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَةً وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ
 وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^{٤٦} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ
 فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُومُوا^{٤٧} وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ^{٤٧}
 اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ^{٤٨}
 فَإِذَا أَصَابَ بِهِ^{٤٩} مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ^{٤٨}
 وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقُبُورِ يُكْفَرُونَ^{٤٩} فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ
 بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^{٥٠}

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ^{٤٣})

و الأمر بالسير في الأرض يدخل فيه السير بالأبدان و السير في القلوب للنظر و التأمل بعواقب المتقدمين

(كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ) تجدون عاقبتهم شر العواقب و مآلهم شر مآل:-

1- عذاب استأصلهم 2- و ذم 3- و لعن من خلق الله يتبعهم 4- و خزي متواصل

فاحذروا أن تفعلوا فعالهم يُحْدِى بكم حدوهم فإن عدل الله و حكمته في كل زمان و مكان 42

(فَأَقْرَ) أقبل بقلبك و توجه به (وَجْهَكَ) و اسع ببدنك (لِـ) إقامة (لِلَّذِينَ الْقَيِّمِ) المستقيم

الأمر باتباع الدين و توحيد الله و عاقبة المجرمين 43-51

ف:-

1- نفذ أوامره و نواهيه بجد و اجتهاد 2- و قم بوظائفه الظاهرة و الباطنة 3- و بادر زمانك و حياتك و شبابك

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ) يوم القيامة الذي إذا جاء (لَا مَرَدَّ لَهُ) لا يمكن رده (مِنْ اللَّهِ) (

و لا يرجأ العاملون أن يستأنفوا العمل بل فرغ من الأعمال لم يبق إلا جزاء العمال.

(يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ)

يتفرقون عن ذلك اليوم و يصدرن أشتاتاً متفاوتتين (لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) ففريق في الجنة و فريق في السعير 44

(مَنْ كَفَرَ) منهم

(فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) و يعاقب هو بنفسه لا تزر وازرة وزر أخرى

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُمْ) لا لغيرهم

(يَمَهِّدُونَ) يهيئون و لأنفسهم يعمرن آخرتهم و يستعدون للفوز بمنازلها و غرفاتها 44

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) و مع ذلك جزاؤهم ليس مقصورا على أعمالهم بل يجزيهم الله

(مِنْ فَضْلِهِ) الممدود و كرمه غير المحدود ما لا تبلغه أعمالهم.

* و ذلك لأنه أحبهم و إذا أحب الله عبدا صب عليه الإحسان صبا و أجزل له العطايا الفاخرة و أنعم عليه بالنعمة الظاهرة و الباطنة.

و هذا بخلاف الكافرين :- فإن الله لما أبغضهم و مقتهم عاقبهم و عذبهم و لم يزدهم كما زاد من قبلهم

فلهذا قال: (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) و مَعَ هَذَا هُوَ الْعَادِلُ فِيهِمْ الَّذِي لَا يَجُورُ 45

(وَمَنْ ءَايَنَيْهِ) و من الأدلة الدالة على رحمته و بعثه الموتى و أنه الإله المعبود و الملك المحمود

(أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ) أمام المطر

(مُبَشِّرَاتٍ) بإثارتها للسحاب ثم جمعها فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله.

(وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ) (

فينزل عليكم من رحمته مطرا:- تحيا به البلاد و العباد

و تذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي:-

المنقذة للعباد و الجالبة لأرزاقهم فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة الفاتحة لخزائن الرحمة.

(وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ) فى البحر

(بِأَمْرِهِ) القدرى

(وَلِتَبْنِغُوا مِنْ فَضْلِهِ) (

بالنصرف في معاشكم و مصالحكم- في التَّجَارَاتِ وَ الْمَعَاشِ وَ السَّيْرِ مِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ وَ قَطْرٍ إِلَى قَطْرٍ

(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) من سخر لكم الأسباب و سير لكم الأمور.

فهذا المقصود من النعم أن:- تقابل بشكر الله تعالى لـ:- يزيدكم الله منها و يبقياها عليكم.

و أما مقابلة النعم بالكفر و المعاصى :-

فهذه حال من بدل نعمة الله كفرا و نعمته محنة و هو معرض لها للزوال و الانتقال منه إلى غير 46

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ) فى الأمم السابقين

(رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ)

حين جحدوا توحيد الله و كذبوا بالحق فجاءتهم رسلكم يدعونهم إلى التوحيد و الإخلاص و التصديق بالحق و بطلان ما هم عليه من الكفر و الضلال

(فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) و الأدلة على ذلك فلم يؤمنوا و لم يزولوا عن غيهم

(فَأَنزَلْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا^ط) و نصرنا المؤمنين أتباع الرسل.

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا) أوجبنا ذلك على أنفسنا و جعلناه من جملة الحقوق المتعينة و وعدناهم به فلا بد من وقوعه

(نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

*فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ إن بقيتم على تكذيبكم حلت بكم العقوبة و نصرناه عليكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: 54] **47**

يخبر (الله) تعالى عن كمال قدرته و تمام نعمته أنه:—(الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا) من الأرض

(فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ)

يمده و يوسعه يكثره و ينميه و يجعل من القليل كثيرًا يُنشئ سحابةً فتُرى في رأي العين مثل الترس ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق.

*و تارةً يأتي السحاب من نحو البحر ثقلاً مملوءة ماءً

كقوله {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُفِّتْهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا

بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: 57]

(كَيْفَ يَشَاءُ) على أي حالة أرادها من ذلك

(وَيَجْعَلُهُ) ذلك السحاب الواسع

(كَسَفًا) سحابا ثخيناً قد طبق بعضه فوق بعض -قطعا- متراكما

(فَتَرَى الْوَدْقَ) السحاب نقطا صغارا متفرقة لا تنزل جميعا فتفسد ما أتت عليه (يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ^ط)

(فَإِذَا أَصَابَ بِهِ) بذلك المطر

(مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

يبشر بعضهم بعضا بنزوله و ذلك لشدة حاجتهم و ضرورتهم إليه و يفرحون بأن الله صرف ذلك إليهم **48**

(وَلِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ) ذلك الانزال

(أَن يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ) آيسين قانطين لتأخر وقت مجيئه

{ فَأَنْظِرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ {الْمَطَرِ فِي الْنبَاتِ وَالزَّرْعِ وَالشَّجَرِ

(اللَّهُ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^ط) فاهتزت و ربت و أنبتت من كل زوج كريم.

(إِنَّ ذَلِكَ) الذي أحيا الأرض بعد موتها

(لَمْ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

فقدرته تعالى لا يتعاصى عليها شيء و إن تعاصى على قدر خلقه و دق عن أفهامهم و حارت فيه عقولهم 50



وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضُّمَّةَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

✱ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَيْنَ جِثَّتْهُمْ شَايَةً لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

(وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا) على زروعهم و نباتهم (ريحا) مفسدة

(فَرَأَوْهُ) أى نباتهم قد فسد بتلك الريح فصار من بعد خضرته

(مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ) ملكثوا من بعد رؤيتهم له (يَكْفُرُونَ) بالله و يجحدون نعمه.

فينسون النعم الماضية و يبادرون إلى الكفر. و هؤلاء لا ينفع فيهم وعظ و لا زجر

كقوله أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ

[الْوَاقِعَةُ: 63 - 67] 51

مدى تأثير النبي ﷺ على الناس و قدرة الله في خلقه 52-54

(فَإِنَّكَ) -أيها الرسول- (لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى) من مات قلبه

(وَلَا تَسْمِعُ الضُّمَّةَ) أو سدَّ أذنه

عن (الدُّعَاءَ) و سماع الحق و لو كانوا حاضرين

و بالأولى (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) فكيف إذا كانوا غائبين عنك مدبرين؟

فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد و السماع النافع كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت

الحسى 52

(وَمَا أَنْتَ) أيها الرسول- (بِهَادٍ) بهرشد (الْعُمَى) من أعماه الله عن طريق الهدى

(عَنْ ضَلَالَتِهِمْ^ط) لأنهم لا يقبلون الإبصار بسبب عماهم فليس منهم قابلية له.

(إِنْ تَسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ) فهم خاضعون ممثّلون لأمر الله

فهؤلاء الذين ينفع فيهم إسماع الهدى المؤمنون بآياتنا بقلوبهم المنقادون لأوامرنا المسلمون لنا لأن معهم الداعى القوى لقبول النصائح و المواعظ و هو استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله و استعدادهم لتنفيذ ما يقدرّون عليه من أوامر الله و نواهيه.

* لقوله {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [الأنعام: 36] 53

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ)

يخبر تعالى عن سعة علمه و عظيم اقتداره و كمال حكمته:-

* ابتداء خلق آدميين من ضعف و هو الأطوار الأول من:-

خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن صار حيوانا فى الأرحام إلى أن ولد و هو فى سن الطفولية:-
و هو إذ ذاك فى غاية الضعف و عدم القوة و القدرة.

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً)

ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئا فشيئا حتى بلغ سن الشباب :- و استوت قوته و كملت قواه الظاهرة و الباطنة

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً)

ثم انتقل من هذا الطور و رجع إلى الضعف و الشيبة و الهرم

(يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ^ط) بحسب حكمته

و من حكمته:-

1- أن يرى العبد ضعفه

2- و أن قـوته محفوفة بضعفين

3- و أنه ليس له من نفسه إلا النقص

4- و لولا تقوية الله له لما وصل إلى قوة و قدرة

5- و لو استمرت قوته فى الزيادة لطغى و بغى و عتا.

6- و ليعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة يخلق بها الأشياء و يدبر بها الأمور

و لا يلحقها إعياء و لا ضعف و لا نقص بوجه من الوجوه.

أحوال الناس يوم القيامة 55-57

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ)

يخبر تعالى عن يوم القيامة و سرعة مجيئه و أنه إذا قامت الساعة

(يُقَسِّمُ الْمُجْرِمُونَ) بالله أنهم

(مَا لَيْشُوا) في الدنيا (غَيْرَ سَاعَةٍ)

و ذلك اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر و استقصار لمدة الدنيا.

و لما كان قولهم كذبا لا حقيقة له قال تعالى:-(كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ)

كما كانوا يكذبون في الدنيا و ينكرون الحق الذي جاءت به الرسل.

و في الآخرة أنكروا الأمر المحسوس و هو اللبث الطويل في الدنيا فهذا خلقهم القبيح و العبد يبعث على ما

مات عليه 55

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ) بالله من الملائكة و الأنبياء و المؤمنين

* صار العلم بالحق و الايمان المستلزم إثبات الحق وصفان لهم

و إذا كانوا عالمين بالحق مؤثرين له لزم أن يكون قولهم مطابقا للواقع مناسبا لأحوالهم.

فلهذا قالوا الحق: (لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ)

في قضائه و قدره الذي كتبه الله عليكم و في حكمه- في كتاب الاعمال

(إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ)

عمرتم عُمُرًا يتذكر فيه المتذكر و يتدبر فيه المتدبر و يعتبر فيه المعتبر حتى صار البعث و وصلتكم إلى هذه الحال.

(فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

فلذلك أنكروتموه في الدنيا و أنكروتم إقامتكم في الدنيا وقتا تتمكنون فيه من الإنابة و التوبة

فلم يزل الجهل شعاركم و آثاره من التكذيب و الخسار دثاركم 56

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ) لَا يَنْفَعُهُمْ اعْتِدَارُهُمْ عَمَّا فَعَلُوا

* فإن كذبوا و زعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة أو ما تمكنوا من الإيمان:-

ظهر كذبهم بشهادة أهل العلم و الإيمان و شهادة جلودهم و أيديهم و أرجلهم

و إن طلبوا الإعذار و أنهم يردون و لا يعودون لما نُهوا عنه لم يُمَكَّنُوا فإنه فات وقت الإعذار فلا تقبل معذرتهم

(وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) يزال عتبهم و العتاب عنهم- وَ لَا هُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} [فُصِّلَتْ: 24] 57

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا) لأجل عنايتنا و رحمتنا و لطفنا و حسن تعليمنا

(لَتَأْسَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) تتضح به الحقائق و تعرف به الأمور و تنقطع به الحجة

* و هذا عام في الأمثال التي يضربها الله في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة.

* و في الإخبار بما سيكون و جلاء حقيقته حتى كأنه وقع.

* و منه في هذا الموضع ذكر الله تعالى ما يكون يوم القيامة و حالة المجرمين فيه و شدة أسفهم

و أنه لا يقبل منهم عذر و لا عتاب

و لكن أبى الظالمون الكافرون إلا معاندة الحق الواضح

و لهذا قال: (وَلَيْنِ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ) أى آية تدل على صحة ما جئت به

(لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ) قالوا للحق: إنه باطل.

و هذا من كفرهم و جرائتهم و طبع الله على قلوبهم و جهلهم المفرط

* لَوْ رَأَوْا آيَةً كَانَتْ سَوَاءً كَانَتْ بِأَقْتِرَاحِهِمْ أَوْ غَيْرِهِ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا سِحْرٌ وَ بَاطِلٌ
كَمَا قَالُوا فِي أَنْشِقَاقِ الْقَمَرِ وَ نَحْوِهِ

قَوْلُهُ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يُونُس: 96 97] 58

و لهذا قال: (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

فلا يدخلها خير و لا تدرك الأشياء على حقيقتها بل ترى الحق باطلا و الباطل حق 59

(فَأَصْبِرْ) على ما أمرت به و على دعوتهم إلى الله و لو رأيت منهم إعراضا فلا يصدنك ذلك.

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) لا شك فيه و هذا مما يعين على الصبر

فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع بل سيجده كاملا هان عليه ما يلقاه من المكاره و يسر عليه كل عسير
و استقل من عمله كل كثير.

(وَلَا يَسْتَخَفَّنَاكَ) يستفزك عن دينك

(الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) بالميعاد و لا يصدقون بالبعث و الجزاء

* بَلْ اثْبُتْ عَلَى مَا بَعَثَكَ اللَّهُ بِهِ فَإِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَ لَا تَعْدِلْ عَنْهُ وَ لَيْسَ فِيهِمَا سِوَاهُ هُدًى يُتَّبَعُ
بَلِ الْحَقُّ كُلُّهُ مُنْحَصِرٌ فِيهِ.

○ أى: قد ضعف إيمانهم و قل يقينهم فخفت لذلك أحلامهم و قل صبرهم

فإياك أن يستخفك هؤلاء فإنك إن لم تجعلهم منك على بال و تحذر منهم و إلا استخفوك و حملوك على عدم

الثبات على الأوامر و النواهي

و النفس تساعدكم على هذا و تطلب التشبه و الموافقة

و هذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل يسهل عليه الصبر و كل ضعيف اليقين ضعيف العقل خفيفه.

فالأول بمنزلة اللب و الآخر بمنزلة القشور فالله المستعان **60**

31- سورة لقمان- مكية- بسم الله الرحمن الرحيم

اَلَمْ (١) تَلِكْ ءَايٰتُ الْكِتٰبِ الْحَكِيْمِ (٢) هٰدِي وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِيْنَ (٣) الَّذِيْنَ يُقِيْمُوْنَ الصَّلٰوةَ
 وَيُوْتُوْنَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُوْنَ (٤) اُولٰٓئِكَ عَلٰى هٰدًى مِّن رَّبِّهِمْ اُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ (٥)
 وَمِن النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا
 اُولٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَلِذَا نُنَادِيْكَ عَلَيْهِ ءَايٰتُنَا وَلِيَّ مُّسْتَكْبِرًا كَاَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَاَن فِيْ اُذُنِهٖ وَقْرًا
 فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ اَلِيْمٍ (٧) اِنَّ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ لَهُمْ جَنَّتُ النَّعِيْمِ (٨) خٰلِدِيْنَ فِيْهَا وَعَدَ اللّٰهُ حَقًّا
 وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ (٩) خَلَقَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَّرَوْنَ هٰٓؤُلَآلِئِىْ فِي الْاَرْضِ رَوٰسِيْ اَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ
 وَبَثَّ فِيْهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَّاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَاَنْبَتْنَا فِيْهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيْمٍ (١٠)
 هٰذَا خَلَقَ اللّٰهُ فَاَرْوٰى مَا ذَا خَلَقَ الَّذِيْنَ مِنْ دُوْنِهٖۤ بَلِ الْظٰلِمُوْنَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ (١١)

مهمة لقمان و صفات المحسن و جزاؤه و المسىء 1-9

(الْم) 1 يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى

(تِلْكَ ءَايٰتُ الْكِتٰبِ الْحَكِيْمِ) آياته محكمة صدرت من حكيم خبير

من إحكامها:-

- 1- أنها جاءت بأجل الألفاظ و أفصحها و أبينها (((الدالة على أجل المعاني و أحسنها)))
- 2- أنها محفوظة من التغيير و التبديل و الزيادة و النقص و التحريف.
- 3- أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة و اللاحقة و الأمور الغيبية كلها مطابقة للواقع مطابق لها الواقع لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية و لم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء و لم يأت و لن يأتي علم محسوس و لا معقول صحيح يناقض ما دلت عليه
- 4- أنها ما أمرت بشيء إلا و هو خالص المصلحة أو راجحها و لا نهت عن شيء إلا و هو خالص المفسدة أو راجحها و كثيرا ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر حكمته فائدته و النهى عن الشيء مع ذكر مضرته.
- 5- أنها جمعت بين الترغيب و التهيب و الوعظ البليغ الذى تعتدل به النفوس الخيرة و تحتكم فتعمل بالحزم.
- 6- أنك تجد آياته المتكررة كالقصص و الأحكام و نحوها قد اتفقت كلها و تواطأت فليس فيها تناقض و لا اختلاف.

*فكلما ازداد بها البصير تدبرا و أعمل فيها العقل تفكرا انبهر عقله و ذهل لبه من التوافق و التواطؤ

و جزم جزما لا يمتري فيه أنه تنزيل من حكيم حميد.

* و لكن-مع أنه حكيم-يدعو إلى كل خلق كريم و ينهى عن كل خلق لئيم أكثر الناس محرومون الاهتداء به معرضون عن الإيمان و العمل به إلا من وفقه الله تعالى و عصمه و هم المحسنون في عبادة ربهم و المحسنون إلى الخلق **2**

فإنه (هَدَى) لهم يهديهم إلى الصراط المستقيم و يحذرهم من طرق الجحيم

(وَرَحْمَةً) لهم تحصل لهم به السعادة في الدنيا و الآخرة و الخير الكثير و الثواب الجزيل و الفرح و السرور و يندفع عنهم الضلال و الشقاء.

(الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

الصلاة المشتملة على:-

1-الإخلاص

2-و مناجاة الله تعالى

3-و التعبّد العام للقلب و اللسان و الجوارح المعينة على سائر الأعمال

(وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

و الزكاة التي:-

1-تزكى صاحبها من الصفات الرذيلة

2-و تنفع أخاه المسلم و تسد حاجته و يبين بها أن العبد يؤثر محبة الله على محبته للمال فيخرجه محبوبه من المال لما هو أحب إليه و هو طلب مرضاة الله

(وَهُمْ) بالبعث و الجزاء (بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

وصف المحسنين بالعلم التام:- و هو اليقين الموجب للعمل و الخوف من عقاب الله فيتركون معاصيه **3**

ف—(أُولَئِكَ) هم المحسنون الجامعون بين العلم التام و العمل

(عَلَى هُدًى) عظيم كما يفيد التأكيد و ذلك الهدى حاصل لهم و واصل إليهم

(مَنْ رَبَّيْهُمْ) الذي لم يزل يربّيهم بالنعم و يدفع عنهم النقم.

و هذا الهدى الذي أوصله إليهم من تربيته الخاصة بأوليائه و هو أفضل أنواع التربية.

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الذين أدركوا رضا ربهم و ثوابه الدنيوى و الآخروى و سلموا من سخطه و عقابه

و ذلك لسلوكلهم طريق الفلاح الذى لا طريق له غيرها **5**

*لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ السُّعْدَاءِ وَ هُمْ الَّذِينَ يَهْتَدُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَ يَنْتَفِعُونَ بِسَمَاعِهِ
كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ
جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [الرُّم: 23]
عَظَفَ بِذِكْرِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِنْتِفَاعِ بِسَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ وَ أَقْبَلُوا عَلَى اسْتِمَاعِ الْمَزَامِيرِ وَ الْغِنَاءِ
بِالْأَلْحَانِ وَ آلَاتِ الطَّرَبِ

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ) هو محروم مخدول

(يَشْتَرِي) يختار و يرغب رغبة من يبذل الثمن فى الشيء.

(لَهُوَ الْحَدِيثُ) الأحاديث الملهية للقلوب الصادة لها عن أجل مطلوب
قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ} قَالَ: هُوَ - وَ اللَّهِ - الْغِنَاءُ.

فدخل فى هذا :-

- 1- كل كلام محرم و كل لغو و باطل و هذيان من الأقوال المرغبة فى الكفر و الفسوق و العصيان
 - 2- و من أقوال الرادين على الحق المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق
و من غيبة و نميمة و كذب و شتم و سب و من غناء و مزامير شيطان
 - 3- و من الماجريات الملهية التى لا نفع فيها فى دين و لا دنيا.
- فهذا الصنف من الناس يشتري لهو الحديث عن هدى الحديث

(يُضِلُّ) (الناس)

(عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) بعدما ضل بفعله أضل غيره لأن الإضلال ناشئ عن الضلال.

و إضلاله فى هذا الحديث :-

صدده عن الحديث النافع و العمل النافع و الحق المبين و الصراط المستقيم.
وَ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
فِي الْغِنَاءِ وَ الْمَزَامِيرِ.

(وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا)

و لا يتم له هذا حتى يقدح فى الهدى و الحق و يتخذ آيات الله هزوا و يسخر بها و بمن جاء بها
*فإذا جمع بين مدح الباطل و الترغيب فيه و القدح فى الحق و الاستهزاء به و بأهله أضل من لا علم عنده
و خدعه بما يوحيه إليه من القول الذى لا يميزه ذلك الضال و لا يعرف حقيقته.

(أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) بما ضلوا و أضلوا و استهزؤا بآيات الله و كذبوا الحق الواضح

كَمَا اسْتَهَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ سَبِيلِهِ: أَهَيُّنُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَذَابِ الدَّائِمِ الْمُسْتَمِر 6

و لهذا قال (**وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا**) ليؤمن بها و ينقاد لها

(**وَلَى مُسْتَكْبِرًا**) أدبر إدبار مستكبر عنها رادّ لها و لم تدخل قلبه و لا أثرت فيه بل أدبر عنها

(**كَانَ**) بل (**لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا**) صمما لا تصل إليه الأصوات فهذا لا حيلة فى هدايته.

هَذَا الْمُقْبِلُ عَلَى اللَّهِ وَاللَّعِبِ وَالطَّرَبِ

إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ:-

1- **وَلَى عَنْهَا وَ أَعْرَضَ وَ أَذْبَرَ**

2- **و تَصَامَمَ وَ مَا بِهِ مِنْ صَمَمٍ** كَأَنَّهُ مَا يَسْمَعُهَا لِأَنَّهُ يَتَأَدَّى بِسَمَاعِهَا إِذْ لَا انْتِفَاعَ لَهُ بِهَا وَ لَا أَرْبَ لَهُ فِيهَا

(**فَبَشِّرْهُ**) بشارة تؤثر في قلبه - الحزن و الغم

و فى بشرته:- السوء و الظلمة و الغبرة.

(**بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**) يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُؤْلِمُهُ كَمَا تَأَلَّمَ بِسَمَاعِ كِتَابِ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ.

* مؤلم لقلبه و لبدنه لا يقادر قدره و لا يدري بعظيم أمره و هذه بشارة أهل الشر فلا نِعْمَتِ البشارة 7

و أما بشارة أهل الخير فقال: (**إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**)

جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان و الظاهر بالإسلام و العمل الصالح

(**لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ**) بشارة لهم بما قدموه و قرى لهم بما أسلفوه 8

(**خَالِدِينَ فِيهَا**) فى جنات النعيم نعيم القلب و الروح و البدن.

(**وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا**) لا يمكن أن يخلف و لا يغير و لا يتبدل.

(**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) كامل العزة كامل الحكمة

من عزته و حكمته:- وفق من وفق و خذل من خذل بحسب ما اقتضاه علمه فيهم و حكمته 9

* يتلو تعالى على عباده آثارا من آثار قدرته و بدائع من بدائع حكمته و نعما من آثار رحمته فقال:-

(**خَلَقَ السَّمَوَاتِ**) السبع على عظمها و سعتها و كثافتها و ارتفاعها الهائل.

(**بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا**) ليس لها عمد و لو كان لها عمد لرئيت و إنما استقرت و استمسكت بقدره الله تعالى.

من أدلة وحدانية الله و قدرته 10-11

(**وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا**) جبالا عظيمة ركزها فى أرجائها و أنحائها

(**أَن**) لئلا (**تَعِيدَ**) تضطرب (**بِكُمْ**) فلولا الجبال الراسيات لمادت الأرض و لما استقرت بساكنيها.

(**وَبَثَّ**) نشر (**فِيهَا**) فى الأرض الواسعة

(مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) من جميع أصناف الدواب التي هي مسخرة لبري آدم و لمصالحهم و منافعهم.

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)

و لما بثها في الأرض علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به فأنزل من السماء ماء مباركا

(فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) المنظر نافع مبارك فرتعت فيه الدواب المنبثة و سكن إليه كل حيوان 10

(هَذَا) خلق العالم العلوى و السفلى من جماد و حيوان و سَوَّقَ أرزاق الخلق إليهم

(خَلَقَ اللَّهُ) وحده لا شريك له كل مقرر بذلك حتى أنتم يا معشر المشركين.

(فَأَرْوِفُ) أيها المشركون (مَاذَا خَلَقَ) الشركاء (الَّذِينَ) تدعونهم و تعبدونهم (مِنْ دُونِهِ)

يلزم على هذا أن يكون لهم خلق كخلقه و رزق كرزقه

فإن كان لهم شيء من ذلك فأرونيه ليصح ما ادعيتهم فيهم من استحقاق العبادة.

و من المعلوم أنهم لا يقدر أن يروه شيئا من الخلق لها لأن جميع المذكورات قد أقرروا أنها خلق الله وحده

و لا ثم شيء يعلم غيرها فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد.

و لكن عبادتهم إياها عن غير علم و بصيرة بل عن جهل و ضلال

(بَلِ الظَّالِمُونَ) المشركون (فِي ضَلَالٍ) ذهاب (مُبِينٍ) بين عن الحق و الاستقامة.

حيث عبدوا من لا يملك نفعاً و لا ضراً و لا موتاً و لا حياة و لا نشوراً و تركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك

لكل الأمور 11

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ مَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا صَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنَىٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءًا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنَّمَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصِرٌ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِن أَنْكَرَ الْأَصَوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

قصة لقمان و وصاياه لابنه 12-19

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ)

اختلف السلف في لقمان عليه السلام:- هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ على قولين الأكثرون على الثاني.
 * قال جابر بن عبد الله عليه السلام:- كان قصيراً أفتس من النبوة.
 * قال بن المسيب:- كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر (ج مشافر: شفة البعير الغليظة) أعطاه الله الحكمة و منعه النبوة.

* قال عبد الرحمن بن حرملة قال: جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد بن المسيب: لا تحزن من أجل أنك أسود فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان:- بلال و مهجع مولى عمر بن الخطاب و لقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر
 * قال مجاهد:- كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين

يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل (الحكمة)

لقمان بالحكمة:-

وهي العلم بالحق على وجهه و حكمته

فهي العلم بالأحكام و معرفة ما فيها من الأسرار و الإحكام فقد يكون الإنسان عالماً و لا يكون حكيماً.

* هي الفقه في الدين و سلامة العقل و الإصابة في القول

* هي:- الفهم و العلم و التعبير

و أما الحكمة:-

فهي مستلزمة للعلم بل و للعمل و لهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع و العمل الصالح

(إِنْ أَشْكُرْ لِلَّهِ) نِعَمَهُ عَلَيْكَ

(وَمَنْ يَشْكُرْ) لربه (فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) ^ط فإنما يعود نفع ذلك عليه

* و لما أعطاه الله هذه المنة العظيمة أمره أن يشكره على ما أعطاه ليبارك له فيه و ليزيده من فضله
و أخبره أن شكر الشاكرين يعود نفعه عليهم لقوله {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ} [الرؤم: 44]

(وَمَنْ كَفَرَ) جحد نِعَمَهُ فلم يشكر الله عاد وبال ذلك عليه.

(فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ) و الله غرى عن شكره غير محتاج إليه

(حَمِيدٌ) فيما يقدره و يقضيه على من خالف أمره

* فغناه تعالى من لوازم ذاته

* و كونه حميدا في صفات كماله حميدا في جميل صنعه من لوازم ذاته

و كل واحد من الوصفين صفة كمال و اجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال 12

* و ذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه فذكر أصول الحكمة و قواعدها الكبار فقال:-

(وَإِذْ قَالَ لِقْمَنُ لِبْنِهِ) قولاً (وَهُوَ يَعِظُهُ) بالأمر و النهى المقرون بالترغيب و التهيب

(يَبْنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ)

فأمره بالإخلاص و نهاه عن الشرك و بين له السبب في ذلك فقال:-

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

و وجه كونه عظيماً أنه لا أفضع و أبشع ممن سؤى المخلوق من تراب بمالك الرقاب

* و سؤى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمن له الأمر كله

* و سؤى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه

* و سؤى من لم ينعم بمشقال ذرة من النعم بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم و دنياهم و أخراهم و قلوبهم

و أبدانهم إلا منه و لا يصرف السوء إلا هو فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟؟!

و هل أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته و توحيده

فذهب بنفسه الشريفة فجعلها في أخس المراتب جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئاً فظلم نفسه ظلماً كبيراً.

* البخارى 32 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: -لَمَّا نَزَلَتْ: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: 82]

قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَئِنَّا لَمْ يَظْلَمْ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13]

* وَ كَثِيرًا مَا يَقْرَأُ تَعَالَى بَيْنَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ 13

* و لما أمر بالقيام بحقه بترك الشرك الذى من لوازمه القيام بالتوحيد أمر بالقيام بحق الوالدين فقال:-

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ) عهدنا إليه و جعلناه وصية عنده سنسأله عن القيام بها و هل حفظها أم لا؟

*لاحظ أخى الفاضل تحولا فى الخطاب بعد ذلك: قال (ووصينا) فلقمان يخاطب ولده و يعظه

و لما جاء الأمر ببر الوالدين لا يليق بالوالد أن يقول لولده:- برنى و اعطف علىّ و تحنن علىّ و استوص بي

فالوالد أجل من أن يطلب هذا الطلب و أرفع (فقه تربية الأبناء للشيخ مصطفى العدوى)

فوصيناه (بِوَالِدَيْهِ) و قلنا له (أَنْ أَشْكُرَ لِي) بالقيام بعبوديتى و أداء حقوقى و أن لا تستعين بنعمى على معصيتى

(وَلِوَالِدَيْكَ) بالإحسان إليهما بـ:—

1-القول اللين و الكلام اللطيف

2-و الفعل الجميل

3-و التواضع لهما و إكرامهما و إجلالهما

4-و القيام بمؤننتهما

5-و اجتناب الإساءة إليهما من كل وجه بالقول و الفعل.

فوصيناه بهذه الوصية و أخبرناه أن (إِلَى الْمَصِيرِ) (

سترجع أيها الإنسان إلى من و صاك و كلفك بهذه الحقوق فيسألك: هل قمت بها فيشيك الثواب الجزيل؟

أم ضيعتها فيعاقبك العقاب الوبيل؟.

ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين فى الأم فقال: -

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ، وَهَنًا وَهْنًا) مشقة (عَلَى) مشقة

فلا تزال تلاقى المشاق من حين يكون نطفة من الرحم و المرض و الضعف و الثقل و تغير الحال

ثم وجع الولادة ذلك الوجع الشديد.

(وَفِصَالُهُ) فطامه عن الرضاعة (فِي) مدة (عَامَيْنِ)

*هو ملازم لحضانه أمه و كفالتها و رضاعها أفما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب

أن يؤكد على ولده و يوصى إليه بتمام الإحسان إليه؟

*كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَ} [البقرة: 233]

*وَمِنْ هَاهُنَا اسْتَنْبَطَ كَثِيرٌ مِنَ الْأُمَّةِ أَنَّ أَقَلَّ مُدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ لِأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:

{وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} [الأحقاف: 15]

*وَأَمَّا يَذْكُرُ تَعَالَى تَرْبِيَةَ الْوَالِدَةِ وَتَعَبَهَا وَ مَشَقَّتَهَا فِي سَهْرِهَا لَيْلًا وَ نَهَارًا لِيُذَكِّرَ الْوَلَدَ بِإِحْسَانِهَا الْمُتَقَدِّمِ إِلَيْهِ

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: 24]

وَلِهَذَا قَالَ: {أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ} أَيْ: فَإِنِّي سَأَجْزِيكَ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ.

(وَلِنْ جَاهِدَاكَ) اجتهد والدك

(عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

و لا تظن أن هذا داخل فى الإحسان إليهما لأن حق الله مقدم على حق كل أحد

و « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »

و لم يقل: «وإن جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فعقهما »

بل قال: (فَلَا تَطْعَمُهُمَا) بالشرك و أما برهما فاستمر عليه

و لهذا قال: (وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) صحبة إحسان إليهما بالمعروف

و أما اتباعهما و هما بحالة الكفر و المعاصى فلا تتبعهما.

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ)

و هم المؤمنون بالله و ملائكته و كتبه و رسله المستسلمون لربهم المنيبون إليه.

و اتباع سبيلهم أن يسلك مسلكهم فى الإنابة إلى الله التى هى انجذاب دواعى القلب و إراداته إلى الله

ثم يتبعها سعى البدن فيما يرضى الله و يقرب منه.

(ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ) الطائع و العاصى و المنيب و غيره

(فَأَنبِئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية **15**

(يَبْقَىٰ إِلَيْهَا إِنَّ تِلْكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ) التى هى أصغر الأشياء و أحقرها

*كذلك المظلمة أو الخطيئة لو كانت مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ.

(فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ) فى وسطها

(أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ) فى أى جهة من جهاتهما

(يَأْتِي بِهَا اللَّهُ) لسعة علمه و تمام خبرته و كمال قدرته

*أَحْضَرَهَا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ وَ جَازَىٰ عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَ إِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ

بِنَا حَاسِبِينَ} [الْأَنْبِيَاءُ: 47]

وَ قَالَ تَعَالَى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزُّلْفَةِ: 8]

*هَذِهِ الْحَبَّةُ فِي حَقَارَتِهَا لَوْ كَانَتْ دَاخِلَ صَخْرَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُبْدِيهَا وَ يُظْهِرُهَا بِلَطِيفِ عِلْمِهِ

و لهذا قال: (إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ) الْعَلَمُ فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ الْأَشْيَاءُ وَ إِنْ دَقَّتْ وَ لَطَفَتْ وَ تَضَاءَلَتْ

(خَيْرٌ) بِدَبِيبِ النَّمْلِ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ.

*أى: لطف في علمه و خبرته حتى اطلع على البواطن و الأسرار و خفايا القفار و البحار

*و المقصود من هذا :-

1-الحث على مراقبة الله و العمل بطاعته مهما أمكن

2-و الترهيب من عمل القبيح قلَّ أو كَثُرَ 16

(يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ) حثه عليها و خصها لأنها أكبر العبادات البدنية-بِحُدُودِهَا وَ فُرُوضِهَا وَ أَوْقَاتِهَا

(وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ) بِحَسَبِ طَاقَتِكَ وَ جُهْدِكَ

*و ذلك يستلزم:-

1-العلم بالمعروف ليأمر به

2-و العلم بالمنكر لينهى عنه.

و الأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر إلا به من:- العرف و الصبر

و قد صرح به في قوله:- (وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ^ط)

عَلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ:-

1- لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ مِنَ النَّاسِ أذى

2-و يشتملان على مشقة على النفوس

3-و من كونه فاعلا لما يأمر به كافًا لما ينهى عنه ⇐ فَأَمْرُهُ بِالصَّبْرِ.

فتضمن هذا:-

1-تكميل نفسه بفعل الخير و ترك الشر

2-و تكميل غيره بذلك بأمره و نهيه.

*و لما علم أنه لا بد أن يتلى إذا أمر و نهى و أن في الأمر و النهى أمره بالصبر على ذلك فقال:-

(ذَلِكَ^ط) الذي وعظ به لقمان ابنه

(مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ) الذى يعزم عليها و يُهْتَمُّ بها و لا يوفق لها إلا أهل العزائم 17

(وَلَا تُصَعِّرْ) لا تُثْمِلْ و تعبس بـ (خَذَكَ) بوجهك (لِلنَّاسِ) تكبراً عليهم و تعاظما.

*أحمد 20633- عن أَبِي جُرَيْجٍ الْهَجَمِيُّ^ط قَالَ:- أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ:-

يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَعَلَّمْنَا شَيْئًا يَنْفَعُنَا اللَّهُ بِهِ

قَالَ:- لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَ لَوْ أَنْ تُفْرَغَ مِنْ دَلُوكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقَى

وَ لَوْ أَنْ تُكَلَّمَ أَخَاكَ وَ وَجْهَكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ وَ إِيَّاكَ وَتَسْبِيلُ الْإِزَارِ فَإِنَّهُ مِنَ الْخِيَلَاءِ

وَالْخَيْلَاءُ لَا يُحِبُّهَا اللَّهُ وَإِنْ أَمَرُوا سَبَّكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ فَلَا تَسُبَّهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ فَإِنَّ أَجْرَهُ لَكَ وَوَبَّالَهُ عَلَى مَنْ قَالَهُ

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) بطرا فخرا بالنعم ناسيا المنعم معجبا بنفسك (ليس المرح: السرور و الفرح)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ) في نفسه و هيئته و تعاظمه

(فَخُورٍ) بقوله- أَيْ عَلَى غَيْرِهِ

وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} [الإشراء: 37] 18

(وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) امش متواضعا مستكينا- لا مَشْرَى البطر و التكبر و لا مشرى التماوت.

(ليس المراد القصد بمعنى: النية أو التمهّل أو تحديد الوجهة)

(وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) أدباً مع الناس و مع الله- لَا تَبَالِغْ فِي الْكَلَامِ وَ لَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: (إِنَّ أَنْكَرَ) أقطع و أبشع (الْأَصْوَاتِ)

قَالَ مُجَاهِدٌ:- إِنَّ أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ أَيْ:-

غَايَةُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ أَنَّهُ يُشَبَّهُ بِالْحَمِيرِ فِي عُلُوِّهِ وَ رَفْعِهِ وَ مَعَ هَذَا هُوَ بَغِيضٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَ هَذَا التَّشْبِيهُ فِي هَذَا بِالْحَمِيرِ يَفْتَضِي تَحْرِيمَهُ وَ دَمَهُ غَايَةَ الدَّمِّ

(لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة و مصلحة لما اختص بذلك الحمار الذي قد علمت خسته و بلادته.

و هذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه تجمع أمهات الحكم و تستلزم ما لم يذكر منها

و كل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً و إلى تركها إن كانت نهياً.

* هذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة:-

أنها العلم بالأحكام و حِكْمِهَا و مناسباتها فأمره بأصل الدين وهو التوحيد

و نهاه عن الشرك و بيّن له الموجب لتركه و أمره ببر الوالدين و بين له السبب الموجب لبرهما

و أمره بشكره و شكرهما ثم احترز بأن محل برهما و امتثال أوامرهما ما لم يأمر بمعصية

و مع ذلك فلا يعقهما بل يحسن إليهما و إن كان لا يطيعهما إذا جاهداه على الشرك.

* و أمره بمراقبة الله و خوفه القدوم عليه و أنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير و الشر إلا أتى بها.

* و نهاه عن التكبر و أمره بالتواضع

* و نهاه عن البطر و الأشر و المرح

* و أمره بالسكون في الحركات و الأصوات و نهاه عن ضد ذلك.

* وأمره بالأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و إقامة الصلاة و بالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر

كما قال تعالى فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا أن يكون مخصوصا بالحكمة مشهورا بها.

و لهذا من منة الله عليه وعلى سائر عبادہ أن قص عليهم من حکمته ما يكون لهم به أسوة حسنة.

*البخارى 3303 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا

وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهيقَ الحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا» **19**

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً
 وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا
 مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾
 وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾
 وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾
 نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ
 مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾
 مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

يتمن تعالى على عباده بنعمه و يدعوهم إلى شكرها و رؤيتها و عدم الغفلة عنها فقال:-

(أَلَمْ تَرَوْا) أى: تشاهدوا و تبصروا بأبصاركم و قلوبكم

(أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ) من الشمس و القمر و النجوم كلها مسخرات لنفع العباد.

(وَمَا فِي الْأَرْضِ) من الحيوانات و الأشجار و الزروع و الأنهار و المعادن و نحوها

كما قال تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ) عممكم و غمركم

(نِعَمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً) التى نعلم بها و التى تخفى علينا نعم الدنيا و نعم الدين حصول المنافع و دفع المضار

فوظيفتكم :-

1- أن تقوموا بشكر هذه النعم بمحبة المنعم و الخضوع له

2- و صرفها فى الاستعانة على طاعته

3- و أن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

(و) لكن مع توالى هذه النعم

نعم الله و عناد المشركين
و اثبات قدرة الله و البعث

31-20

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ)

لم يشكرها بل كفرها **و كفر بمن أنعم بها و جحد الحق الذي أنزل به كتبه و أرسل به رسله**

فجعل **(مُجَدِّلٌ فِي اللَّهِ)**

يجادل عن الباطل ليدحض به الحق و يدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده
و هذا المجادل على غير بصيرة فليس جداله عن علم فيترك و شأنه و يسمح له فى الكلام

(وَلَا هُدًى) يقتدى به بالمهتدين

(وَلَا كِتَابٌ مِّنْهُ) مضى- غير مبين للحق فلا معقول و لا منقول و لا اقتداء بالمهتدين

و إنما جداله فى الله مبرى على تقليد آباء غير مهتدين بل ضالين مضلين **20**

و لهذا قال: **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)** على أيدى رسله فإنه الحق و بينت لهم أدلته الظاهرة

(قَالُوا) معارضين ذلك:-

(بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد كائنا من كان.

قال تعالى فى الرد عليهم و على آبائهم:-

فاستجاب له آباؤهم و مشوا خلفه و صاروا من تلاميذ الشيطان و استولت عليهم الحيرة.

فهل هذا موجب لاتباعهم لهم و مشيهم على طريقتهم

أم ذلك يرهبهم من سلوك سبيلهم و ينادى على ضلالهم و ضلال من اتبعهم.

و ليس دعوة الشيطان لآبائهم و لهم محبة لهم و مودة

و إنما ذلك عداوة لهم و مكر بهم و بالحقيقة أتباعه من أعدائه الذين تمكن منهم و ظفر بهم و قرت عينه

باستحقاقهم عذاب السعير بقبول دعوته.

*لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُجَّةٌ إِلَّا اتِّبَاعَ الْآبَاءِ الْأَقْدَمِينَ قَالَ اللَّهُ:- **{أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}** [البقرة: 170]

أَي: فَمَا ظَنُّكُمْ أَيُّهَا الْمُحْتَجُّونَ بِصَنِيعِ آبَائِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ وَ أَنْتُمْ خَلَفْتُمْ لَهُمْ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

وَ لِهَذَا قَالَ: **{أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ}** بتزيينه لهم سوء أعمالهم و كفرهم بالله **(إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ)** **21**

(وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ) يخضع له و ينقاد له بفعل الشرائع مخلصا له دينه.

(وَهُوَ مُحْسِنٌ)

1- فى ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعا قد اتبع فيه الرسول ﷺ.

2-أو:- و من يسلم وجهه إلى الله بفعل جميع العبادات و هو محسن فيها بأن:-

يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

3-أو و من يسلم وجهه إلى الله بالقيام بحقوقه و هو محسن إلى عباد الله قائم بحقوقهم.

*و المعاني متلازمة لا فرق بينها إلا من جهة اختلاف مورد اللفظتين

و إلا فكلها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين على وجه تقبل به و تكمل فمن فعل ذلك فقد أسلم

(فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) التي من تمسك بها توثق و نجا و سلم من الهلاك و فاز بكل خير.

و من لم يسلم وجهه لله أو لم يحسن لم يستمسك بالعروة الوثقى

و إذا لم يستمسك بالعروة الوثقى لم يكن ثم إلا الهلاك و البوار.

(وَالِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) رجوعها و موئلاها و منتهاها

فيحكم في عبادته و يجازيهم بما آلت إليه أعمالهم و وصلت إليه عواقبهم فليستعدوا لذلك الأمر 22

(وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهَا) فلا تكثر به ولا تحزن عليه

لأنك أدت ما عليك من الدعوة و البلاغ فإذا لم يهتد فقد وجب أجرك على الله

و لم يبق للحنن موضع على عدم اهتدائه لأنه لو كان فيه خير لهداه الله.

*و لا تحزن أيضا على كونهم تجرأوا عليك بالعداوة و نابذوك المحاربة و استمروا على غيهم و كفرهم

*و لا تتحرق عليهم بسبب أنهم ما بودروا بالعذاب.

فإن (إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا) من كفرهم و عداوتهم و سعيهم في إطفاء نور الله و أذى رسله.

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) التي ما نطق بها الناطقون فكيف بما ظهر و كان شهادة 23

(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا) في الدنيا ليزداد إثمهم و يتوفر عذابهم

(ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ) نلجئهم

(إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ) انتهى في عظمه و كبره و فظاعته و ألمه و شدته 24

(وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ) أي هؤلاء المشركين المكذبين بالحق

(مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)

لعلوا أن أصنامهم ما خلقت شيئا من ذلك و لبادروا بقولهم الله الذي خلقهما وحده.

(لَيَقُولَنَّ اللَّهُ) ف—(قُلْ) لهم ملزما لهم و محتجا عليهم بما أقروا به على ما أنكروا:—

(الْحَمْدُ لِلَّهِ) الذي بين النور و أظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم

فلو كانوا يعلمون لجزموا أن المنفرد بالخلق و التدبير هو الذى يفرد بالعبادة و التوحيد.

(بَلْ) و لكن

(أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

فلذلك أشركوا به غيره و رضوا بتناقض ما ذهبوا إليه على وجه الحيرة و الشك لا على وجه البصيرة **25**

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

ثم ذكر في هاتين الآيتين نموذجا من سعة أوصافه ليدعو عباده إلى معرفته و محبته و إخلاص الدين له.

فذكر عموم ملكه و أن جميع ما في السماوات و الأرض -

و هذا شامل لجميع العالم العلوى و السفلى - أنه ملكه يتصرف فيهم بـ:-

1- أحكام الملك القدريّة

2- و أحكامه الأمرية

3- و أحكامه الجزائية

فكلهم عبيد ممالك مدبرون مسخرون ليس لهم من الملك شئ

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ) ووسع الغنى فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق

(مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ)

و أن أعمال النبين و الصديقين و الشهداء و الصالحين لا تنفع الله شيئا و إنما تنفع عامليها و الله غرى عنهم

و عن أعمالهم

(الْحَمِيدُ)

و من غناه أن أغناهم و أقناهم في دنياهم و آخرهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده و أن حمده من لوازم ذاته فلا يكون إلا حميدا من جميع الوجوه

فهو حميد في ذاته

و هو حميد في صفاته

فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل حمد و أتمه لكونها صفات عظمة و كمال

و جميع ما فعله و خلقه يحمد عليه و جميع ما أمر به و نهى عنه يحمد عليه

و جميع ما حكم به في العباد و بين العباد في الدنيا و الآخرة يحمد عليه **26**

*ثم أخبر عن سعة كلامه و عظمة قوله بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ و تنبهر له العقول و تحير فيه الأفئدة

و تسيح في معرفته أولو الأبواب و البصائر فقال:-

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ) و لو أن أشجار الأرض كلها بُرِيت أقلامًا

(وَالْبَحْرُ) مدادا و (يُمَدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ)

و كُتِبَ بتلك الأقلام و ذلك المداد كلمات الله من علمه و حكمه و ما أوحاه إلى ملائكته و رسله:-
لتكسرت تلك الأقلام

(مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ)

و لنفد ذلك المداد، و لم تنفد كلمات الله التامة التي لا يحيط بها أحد
* و هذا ليس مبالغة لا حقيقة له

بل لما علم تبارك و تعالى أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته و علم تعالى أن معرفته لعباده أفضل
نعمة أنعم بها عليهم و أجل منقبة حصولها و هى لا تمكن على وجهها و لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله
فنبههم تعالى تنبيها تستتير به قلوبهم و تشرح له صدورهم و يستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه
و يقولون كما قال أفضلهم و أعلمهم بربه:-

« لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »

و إلا فالأمر أجل من ذلك و أعظم.

و هذا التمثيل من باب تقريب المعنى الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأفهام و الأذهان
و إلا فالأشجار و إن تضاعفت على ما ذكر أضعافا كثيرة

و البحور لو امتدت بأضعاف مضاعفة فإنه يتصور نفادها و انقضاؤها لكونها مخلوقة.

○ و أما كلام الله تعالى فلا يتصور نفاده بل دلنا الدليل الشرعي و العقلي على أنه لا نفاد له و لا منتهى و كل
شيء ينتهي إلا البارى و صفاته (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى) و إذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى و آخريته

و أنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة مهما تسلسل الفرض و التقدير فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية
و أنه مهما فرضه الذهن و العقل من الأزمان المتأخرة و تسلسل الفرض و التقدير

و ساعد على ذلك من ساعد بقلبه و لسانه فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية و لا نهاية.

و الله فى جميع الأوقات يحكم و يتكلم و يقول و يفعل كيف أراد

و إذا أراد لا مانع له من شىء من أقواله و أفعاله فإذا تصور العقل ذلك عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه
ليدرك العباد شيئا منه و إلا فالأمر أعظم و أجل.

*ثم ذكر جلالة عزته و كمال حكمته فقال: (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

له العزة جميعا الذي ما فى العالم العلوى و السفلى من القوة إلا منه أعطاهما للخلق فلا حول و لا قوة إلا به
و بعزته:- قهر الخلق كلهم و تصرف فيهم و دبرهم

و بحكمته:-

خلق الخلق و ابتدأه بالحكمة و جعل غايته و المقصود منه الحكمة و كذلك الأمر و النهى وجد بالحكمة
و كانت غايته المقصودة الحكمة فهو الحكيم في خلقه و أمره **27**
*ثم ذكر عظمة قدرته و كمالها و أنه لا يمكن أن يتصورها العقل فقال:-

(مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ)

إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم و بعثهم بعد موتهم بعد تفرقهم فى لمحة واحدة

(إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) كخلقه نفساً واحدة - ((شئ يحير العقول)))

فلا وجه لاستبعاد البعث و النشور و الجزاء على الأعمال إلا الجهل بعظمة الله و قوة قدرته.
وَ {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: 82] {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: 50]
أَي: لَا يَأْمُرُ بِالشَّيْءِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً فَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكَرُّرِهِ وَ تَوَكُّدِهِ.
{فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ* فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [التازعات: 13 14]

*ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات و بصره لجميع المبصرات فقال:-

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ) لَأَقْوَالِهِمْ

(بَصِيرٌ)

بأفعالهم كسمعه و بصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة **28**

.....

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
 كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
 وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
 بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلَلِ
 دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصُونَ مَا يَجِئُهُمْ بِمَا يَدْعُونَ
 إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ
 وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
 وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ
 وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

يخبر الله عن انفراده بالتصرف و التدبير و سعة تصرفه فقال:-

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ) يدخل (اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ) يأخذ من ساعات الليل فيطول النهار و يقصر الليل

(وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) يأخذ من ساعات النهار فيطول الليل و يقصر النهار

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

يجريان بتدبير و نظام لم يختل منذ خلقهما ليقيم بذلك من مصالح العباد و منافعهم في دينهم و دنياهم ما به
 يعتبرون و ينتفعون.

(كُلٌّ) و منهما

(يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى)

إذا جاء ذلك الأجل انقطع جريانهما و تعطل سلطانهما و ذلك في يوم القيامة حين تكور الشمس و يخسف
 القمر و تنتهي دار الدنيا و تبتدئ الدار الآخرة.

*البخارى 3199 - عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

لَأَبَى ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَعْلَمُ
 قَالَ: " فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَ يُوْشِكُ أَنْ تَسْجُدَ
 فَ لَا يَقْبَلُ مِنْهَا وَ تَسْتَأْذِنَ فَلَا يُؤْذَنُ لَهَا يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا
 فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [يس: 38]

(وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ) من خير و شر

(خَيْرٌ) لا يخفى عليه شيء من ذلك و سيجازيكم على تلك الأعمال بالثواب للمطيعين و العقاب للعاصين **29**

و (ذَلِكَ) الذى بين لكم من عظمته و صفاته ما بين

(بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

فى ذاته و فى صفاته و دينه حق و رسله حق و وعده حق و وعيده حق و عبادته هى الحق.

(وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ) فى ذاته و صفاته

فلولا إيجاد الله له لما وجد و لولا إمداده لما بقي فإذا كان باطلا كانت عبادته أبطل و أبطل.

قوله: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطَّلَق: 12]

(وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ)

بذاته فوق جميع مخلوقاته الذى علت صفاته أن يقاس بها صفات أحد من الخلق و علا على الخلق فقهرهم

(الْكَبِيرُ) الذى له الكبرياء فى ذاته و صفاته و له الكبرياء فى قلوب أهل السماء و الأرض **30**

(الْمُتَرَّ) من آثار قدرته و رحمته و عنايته بعباده

(أَنَّ) سخر (الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ) بأمره القدرى و لطفه و إحسانه

(لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ) ففيتها الانتفاع و الاعتبار

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ) على الضراء صبار على طاعة الله و عن معصيته و على أقداره

(شَكُورٍ) على السراء شكور لله على نعمه الدينية و الدنيوية.... فهم المنتفعون بالآيات **31**

(وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلَلِ) كالجبال و الغمام

(دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) الدعاء

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَah} [الإِسْرَاء: 67]

وَ قَالَ {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [العنكبوت: 65] .

○ و ذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر و غشيان الأمواج كالظل فوقهم أنهم يخلصون الدعاء لله

و العبادة:-

(فَلَمَّا بَجَّهْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ)

طبيعة الكفار و الأمر
بالتقوى و علم الله
بالغيب 34-32

انقسموا فريقين:

1- **(فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ)** فرقة مقتصدة أى: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم. قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ كَافِرٍ. كَأَنَّهُ فَسَّرَ الْمُقْتَصِدَ هَاهُنَا بِالْجَاحِدِ كَقَوْلِهِ {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [الْعنكبوت: 65]. وَ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُوَ الْمُتَوَسِّطُ فِي الْعَمَلِ. وَ هَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ هُوَ الْمُرَادُ فِي قَوْلِهِ:-

{فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} [فاطر: 32]

فَالْمُقْتَصِدُ هَاهُنَا هُوَ:- الْمُتَوَسِّطُ فِي الْعَمَلِ. وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا هُنَا أَيْضًا وَ يَكُونُ مِنْ بَابِ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ شَاهَدَ تِلْكَ الْأَهْوَالَ وَ الْأُمُورَ الْعِظَامَ وَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ فِي الْبَحْرِ *ثُمَّ بَعْدَمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَلَاصِ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُقَابَلَ ذَلِكَ بِ:-
الْعَمَلِ التَّامِّ وَ الدُّوْبِ فِي الْعِبَادَةِ وَ الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ. فَمَنْ اقْتَصَدَ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ مُقْصِرًا وَ الْحَالَةُ هَذِهِ

2- و فرقة كافرة بنعمة الله جاحدة لها و لهذا قال: **(وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ)** غدار و من غدره أنه عاهد ربه لئن أنجيتنا من البحر و شدته ل نكونن من الشاكرين فغدر و لم يف بذلك **(كُفُورٍ)** بنعم الله. فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة إلا القيام التام بشكر نعم الله؟ **32**

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ) بلشتال أو امره و ترك زواجه

(وَاحْشَوْا يَوْمًا) احذروا يوم القيامة

فــــ **(لَا يَجْزِي)** يغري **(وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لَوْلَا هُوَ جَانٍ)** دافع أو قاض أو حامل **(عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا)** لَوْ أَرَادَ أَنْ يَفْدِيَهُ بِنَفْسِهِ لَمَا قُبِلَ مِنْهُ. وَ كَذَلِكَ الْوَلَدُ لَوْ أَرَادَ فِدَاءَ وَالِدِهِ بِنَفْسِهِ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْهُ. *لا يزيد في حسناته و لا ينقص من سيئاته قد تم على كل عبد عمله و تحقق عليه جزاؤه.

فلفت النظر في هذا لهذا اليوم المهيل مما يقوى العبد و يسهل عليه تقوى الله و هذا من رحمة الله بالعباد يأمرهم بتقواه الذى فيها سعادتهم و يعدهم عليها الثواب و يحذرهم من العقاب و يزعجهم إليه بالمواعظ و المخوفات فلك الحمد يا رب العالمين.

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) فلا تمتروا فيه و لا تعملوا عمل غير المصدق

فلهذا قال:- **(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)** بزينتها و زخارفها و ما فيها من الفتن و المحن.

(وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ) الذى هو الشيطان الذى ما زال يخدع الإنسان و لا يغفل عنه فى جميع الأوقات فإن لله على عباده حقا و قد وعدهم موعدا يجازيهم فيه بأعمالهم و هل وفوا حقه أم قصروا فيه. و هذا أمر يجب الاهتمام به و أن يجعله العبد نصب عينيه و رأس مال تجارته التى يسعى إليها.

* و من أعظم العوائق عنه و القواطع دونه:-

1-الدينا الفتانة

2-و الشيطان الموسوس المُسَوَّل

فنهى تعالى عباده أن تغرهم الدنيا أو يغرهم بالله الغرور (يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) النساء: 120
قد تقرر أن الله تعالى أحاط علمه بالغيب و الشهادة و الظواهر و البواطن و قد يطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية

و هذه الأمور الخمسة من الأمور التي طوى علمها عن جميع المخلوقات فلا يعلمها نبي مرسل و لا ملك مقرب فضلا عن غيرهما 33

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) يعلم متى مرساها كما قال تعالى:-

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً) الاعراف: 187

(وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ) هو المنفرد بإنزاله و علم وقت نزوله.

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) هل هو ذكر أم أنثى لانه هو الذى أنشأها

و لهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربه:- هل هو ذكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما يشاء.

فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا فِي الْأَرْحَامِ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى أَحْمَرٌ أَوْ أَسْوَدٌ وَمَا هُوَ

(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا) من كسب دينها و دنياها-أخير أم شر

(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)

لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَدْرِي أَيَّنَ مَضَجَعُهُ مِنَ الْأَرْضِ أَفِي بَحْرٍ أَمْ بَرٍّ أَوْ سَهْلٍ أَوْ جَبَلٍ؟
بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعه.

و هَذِهِ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} [الأنعام: 59].

وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِتَسْمِيَةِ هَذِهِ الْخَمْسِ: مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ.

*البخارى 7379- عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-

مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ:

1- لَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ

2- وَ لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍّ إِلَّا اللَّهُ

3- وَ لَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ

4- وَ لَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللَّهُ

5- وَ لَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ

* و لما خصص هذه الأشياء عمم علمه بجميع الأشياء فقال:-

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) محيط بالظواهر و البواطن و الخفايا و الخبايا و السرائر
و من حكمته التامة أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد لأن فى ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر
ذلك 34

32-سورة السجدة-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

اَلَمْ نَنْزِلْ اَلْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ اَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
 لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا اَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اَللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ اَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ اَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾
 يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾
 ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ
 ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ
 وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾
 وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ ﴿١٠﴾
 قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

اثبات تنزيل القرآن 1-3

يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم (المر) 1

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ) لا شك و لا امتراء فهو مطابق للواقع ليس فيه خفاء أو اشتباه في معانيه

(مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) الذي رباهم بنعمته

و من أعظم ما رباهم به هذا الكتاب الذي فيه كل ما يصلح أحوالهم و يتمم أخلاقهم

(أَمْ يَقُولُونَ) مع ذلك قال المكذوبون للرسول الظالمون في ذلك:-

(افْتَرَيْنَاهُ) محمد و اختلقه من عند نفسه و هذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله

و زُيِّمَ محمد ﷺ بأعظم الكذب و قدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق.

و كل واحد من هذه من الأمور العظائم قال الله -راداً على من قال: افترأه:-

(بَلْ هُوَ الْحَقُّ) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

(مِنْ رَبِّكَ) أنزله رحمة للعباد

(لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا اَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ) في حالة ضرورة و فاقة لإرسال الرسول و إنزال الكتاب لعدم النذير

بل هم في جهلهم يعمهون و في ظلمة ضلالهم يترددون فأنزلنا الكتاب عليك

(لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) من ضلالهم فيعرفون الحق فيثرونه.

و هذه الأشياء التي ذكرها الله كلها مناقضة لتكذيبهم له: -و إنها تقتضي منهم الإيمان و التصديق التام به
*هم في ضرورة و حاجة إلى الرسالة و أن فيه الهداية لكل خير وإحسان

و هو كـونه (مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) و أنه (الْحَقُّ) و الحق مقبول على كل حال 2

بعض الأدلة على قدرة الله و وحدانيته 4-9

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ) يخبر تعالى عن كمال قدرته بخلق

(السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) أولها يوم الأحد و آخرها الجمعة مع قدرته على خلقها بلحظة

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) الذي هو سقف المخلوقات استواء يليق بجلاله.

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ) يتولاكم في أموركم فينفعكم

(وَلَا شَافِعُ) يشفع لكم إن توجه عليكم العقاب.

(أَفَلَا نَتَذَكَّرُونَ) فتعلمون أن خالق الأرض و السماوات المستوى على العرش العظيم الذي انفرد بتدبيركم

و توليكم و له الشفاعة كلها هو المستحق لجميع أنواع العبادة 3

(يُذِبرُ الْأَمْرَ) القدرى و الأمر الشرعى الجميع هو المتفرد بتدبيره نازلة تلك التدابير من عند المليك القدير

(مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ)

فيحيدُ بها و يُشقي و يُغري و يُفقر و يُعزُّ و يُذلُّ و يُكرمُ و يُهينُ و يرفع أقوامًا و يضع آخرين و يُنزل الأرزاق.

(ثُمَّ يَعْرِجُ) يصعد (إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ) من أيام الدنيا

(مِمَّا تَعْدُونَ) التي تعدونها و هو يعرج إليه و يصله في لحظة 5

(ذَلِكَ) الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة الذي استوى على العرش العظيم و انفرد بالتدابير فى المملكة

(عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

{الْعَزِيزُ} الذى قد عزَّ كلَّ شَيْءٍ فَقَهَرَهُ وَ غَلَبَهُ وَ دَانَتْ لَهُ الْعِبَادُ وَ الرِّقَابُ

{الرَّحِيمُ} {بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَهُوَ عَزِيزٌ فِي رَحْمَتِهِ رَحِيمٌ فِي عِزَّتِهِ

وَ هَذَا هُوَ الْكَمَالُ: الْعِزَّةُ مَعَ الرَّحْمَةِ وَ الرَّحْمَةُ مَعَ الْعِزَّةِ فَهُوَ رَحِيمٌ بِلَا دُلٍّ

فبسعة علمه و كمال عزته و عموم رحمته أوجدها و أودع فيها من المنافع ما أودع و لم يعسر عليه تدبيرها 6

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

كل مخلوق خلقه الله فإن الله أحسن خلقه و خلقه خلقاً يليق به و يوافقه فهذا عام.

ثم خص آدمى لشرفه و فضله فقال:- (**وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ**) و ذلك بخلق آدم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أبى البشر **7**

(**ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ**) ذرية آدم ناشئة

(**مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ**) النطفة المستقدرة الضعيفة.

يَتَنَاسَلُونَ كَذَلِكَ مِنْ نُّطْفَةٍ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ صُلْبِ الرَّجُلِ وَ تَرَائِبِ الْمَرْأَةِ **8**

(**ثُمَّ سَوَّاهُ**)

بلحمه و أعضائه و أعصابه و عروقه و أحسن خلقته و وضع كل عضو منه بالمحل الذى لا يليق به غيره

(**وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِيَّ**) بأن أرسل إليه الملك فنفخ فيه الروح فيهود بإذن الله حيوانا بعد أن كان جماداً.

(**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ**) ما زال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً حتى أعطاكم السمع و الأبصار

(**وَالْأَفْئِدَةَ**) العقول (**فَلْيَلَا مَا تَشْكُرُونَ**) الذى خلقكم و صوركم **9**

(**وَقَالُوا**) قال المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد:

انكار المشركين للبعث و حالهم يوم القيامة 14-10

(**أَوَإِذَا ضَلَلْنَا**) بليتنا و تمزقنا و تفرقنا (**فِي الْأَرْضِ**) فى المواضع التى لا تُعْلَمُ (ليس المراد إذا تهنا فى الارض و أضعنا الطريق)

(**أَوَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**) لمبعوثون بعثاً جديداً بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء

و ذلك لقياسهم قدرة الخالق بقدرتهم

و كلامهم هذا ليس لطلب الحقيقة و إنما هو ظلم و عناد و كفر ببقاء ربهم و جحد

و لهذا قال:- (**بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ**)

فكلامهم علم مصدره و غايته و إلا فلو كان قصدهم بيان الحق لَبَيَّنَ لهم من الأدلة القاطعة على ذلك

ما يجعله مشاهداً للبصيرة بمنزلة الشمس للبصر.

* و يكفهم أنهم معهم علم أنهم قد ابتدئوا من العدم فالإعادة أسهل من الابتداء

و كذلك الأرض الميتة ينزل الله عليها المطر فتحيا بعد موتها و ينبت به متفرق بذورها.

(**قُلْ يَتُوفَّئِكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ**) فيقبض أرواحكم إذا انتهت آجالكم و لن تتأخروا لحظة واحدة

(**الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ**) جعله الله وكيلاً على قبض الأرواح و له أعوان

(**ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم تُرْجَعُونَ**) فيجازيكم بأعمالكم و قد أنكرتم البعث فانظروا ماذا يفعل الله بكم **11**

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا
 إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ
 وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَّا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ
 بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
 وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا
 وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾
 أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ
 كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾

لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة ذكر حالهم في مقامهم بين يديه فقال: -

(وَلَوْ تَرَىٰ) أيها المخاطب

(لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا و خطبًا جسيمًا و أقوامًا خاسرين و سؤلا غير مجاب لأنه قد مضى وقت الإمهال).

(إِذِ الْمُجْرِمُونَ) الذين أصروا على الذنوب العظيمة

(نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ) خاشعين خاضعين أذلاء مقرين بجرمهم سائلين الرجعة (عِنْدَ رَبِّهِمْ)

قائلين:- (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا) قبائحنا

(وَسَمِعْنَا) منك تصديق ما كانت رسلك تأمرنا به في الدنيا- بان لنا الأمر و رأيناه عيانًا فصار عين يقين.

(فَارْجِعْنَا) إلى الدنيا (نَعْمَلْ) فيها (صَالِحًا) بطاعتك

(إِنَّا مُوقِنُونَ) إنا قد أيقنا الآن ما كنا به في الدنيا مكذبين من وحنانيتك و أنك تبعث من في القبور.

* و كل هذا بقضاء الله و قدره حيث خلى بينهم و بين الكفر و المعاصي

كما قال: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُفْقَرُ عَلَى النَّارِ فُقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا
 كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

فلهذا قال: (**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى**)

لهدينا الناس كلهم و جمعناهم على الهدى فمشيئتنا صالحة لذلك
و لكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى كما قال تعالى { **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعًا** }
[يونس: 99] .

و لهذا قال: (**وَلَكِن حَقَّ**) وجب و ثبت (**الْقَوْلُ مِنِّي**) ثبوتاً لا تغير فيه.

(**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**)

فهذا الوعد لا بد منه و لا محيد عنه فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر و المعاصي **13**

(**فَذُوقُوا**) يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل و سألوا الرجعة إلى الدنيا ليستدركوا ما فاتهم قد فات وقت الرجوع
و لم يبق إلا العذاب فذوقوا العذاب الأليم

(**بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**) النسيان نسيان ترك أى: - بما أعرضتم عنه و تركتم العمل له
و كأنكم غير قادمين عليه و لا ملاقيه.

يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَ التَّوْبِيخِ:-
ذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِكُمْ بِهِ وَ اسْتِبْعَادِكُمْ وَ قُوعَهُوَ تَنَاسِيَكُمْ لَهُ إِذْ عَامَلْتُمُوهُ مُعَامَلَةً مَّنْ هُوَ نَاسٍ
لَّهُ

(**إِنَّا نَسِينَكُمْ**) تركناكم بالعذاب جزاء من جنس عملكم فكما نسيتم نسيتم فالله لا يضل عنه شئ
هو من بابِ الْمُقَابَلَةِ كما قال تعالى: { **الْيَوْمَ نُنَسِّكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** } [الْبَاقِيَةِ: 34]

(**وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ**) العذاب غير المنقطع فإن العذاب إذا كان له أجل و غاية كان فيه بعض التنفيس
و التخفيف و أما عذاب جهنم - أعاذنا الله منه - فليس فيه روح راحة و لا انقطاع لعذابهم فيها.

(**بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**) بسبب كفركم و تكذيبكم و معاصيكم

كما قال في الآية الأخرى: { **لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا جَزَاءً وَفَاقَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا**
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا } [النَّبَأ: 24-30] **14**

لما ذكر تعالى الكافرين بآياته و ما أعد لهم من العذاب ذكر المؤمنين بها و وصفهم و ما أعد لهم من الثواب
فقال:- (**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا**) يصدق إيماناً حقيقياً من يوجد منه شواهد الإيمان

و هم: (**الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا**)

صفات المؤمنين و جزاؤهم 15-19

آيات ربهم فتليت عليهم آيات القرآن و أتهم النصائح على أيدي رسل الله و دُعوا إلى التذكر سمعوها
فقبلوها و انقادوا

و (خَرُّوا سُجَّدًا) خاضعين لها خضوع ذكر لله و فرح بمعرفته.

(وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾)

لا بقلوبهم و لا بأبدانهم فيمتنعون من الانقياد لها بل متواضعون لها قد تلقوها بالقبول و التسليم و قابلوها بالانشراح و التسليم و توصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم و اهتموا بها إلى الصراط المستقيم 15

(تَجَافَى) ترتفع و تنزعج

(جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) اللذيذة إلى ما هو ألد عندهم منه و أحب إليهم و هـو:-

[الصلاة في الليل و مناجاة الله تعالى]

و لهذا قال: (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) في جلب مصالحهم الدينية و الدنيوية و دفع مضارهما.

(خَوْفًا وَطَمَعًا) جامعين بين الوصفين

(خَوْفًا) أن ترد أعمالهم خوفاً من عذاب الله

(وَطَمَعًا) في قبول الاعمال و طمعاً في ثوابه.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) من الرزق قليلا كان أو كثيرا

(يُنْفِقُونَ) و لم يذكر قيد النفقة و لا المنفق عليه ليدل على العموم

فإنه يدخل فيه النفقة الواجبة:-

كالزكوات و الكفارات و نفقة الزوجات و الأقارب و النفقة المستحقة في وجوه الخير

و النفقة و الإحسان المالى خير مطلقاً سواء وافق غنياً أو فقيراً قريباً أو بعيداً

و لكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع فهذا عملهم 16

*أحمد 3949 - عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مِنْ رَجُلَيْنِ:-

1- رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وَطْائِهِ وَ لِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَ حَيِّهِ إِلَى صَلَاتِهِ

فَيَقُولُ رَبُّنَا: أَيَا مَلَائِكَتِي انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي ثَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَ وَطْائِهِ وَ مِنْ بَيْنِ حَيِّهِ وَ أَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ

رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَ شَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي

2- وَ رَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَانْهَزَمُوا فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْفِرَارِ وَ مَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ فَرَجَعَ حَتَّى أَهْرِيقَ

دَمُهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَ شَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي

فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَ رَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي حَتَّى أَهْرِيقَ دَمُهُ "

*أحمد 22068 - عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَلَمَّا رَأَيْتُهُ خَلِيًّا.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ. قَالَ:- بَخٍ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ

وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى مَنْ يَسْرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ تَقِيمُ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ وَتُؤَدَّى الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ وَتَلْقَى اللَّهُ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا

أَوَلَا أَدُلُّكَ عَلَى رَأْسِ الْأَمْرِ وَ عَمُودِهِ وَ ذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟

أَمَّا رَأْسُ الْأَمْرِ: فَإِلْسْلَامُ فَمَنْ أَسْلَمَ سَلِمَ وَ أَمَّا عَمُودُهُ: فَالصَّلَاةُ وَ أَمَّا ذُرْوَةُ سَنَامِهِ: فَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟

الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَ الصَّدَقَةُ وَ قِيَامُ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ يُكَفِّرُ الْخَطَايَا

وَ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ [السجدة: 16]

أَوَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْلِكِ ذَلِكَ لَكَ كُلُّهُ؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ نَفَرٌ

قَالَ: فَخَشِيتُ أَنْ يَشْغَلُوا عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ شُعْبَةُ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا

قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَوْلُكَ أَوَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْلِكِ ذَلِكَ لَكَ كُلُّهُ؟

قَالَ: فَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى لِسَانِهِ. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ إِنَّا لَنُؤَاخِذُ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟

قَالَ: " ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ مُعَاذُ وَ هَلْ يَكُفُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟ "

◀ أهل الرجاء والخوف

كُنْتُ دَائِمًا أَتَأَمَّلُ كَيْفَ امْتَدَحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَهْلَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ فِي

كِتَابِهِ، كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا

وَطَمَعًا ﴾^(١)، فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمانًا، والخوف يستلزم

الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا، وكلُّ أحدٍ إذا خفته هربت منه إلا الله

تعالى، فإنك إذا خفته هربت إليه.

ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿ أَمِنْ هُوَ فَنِتَّ ءَانَاءَ الْيَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ

الزمر: ٩

وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾^(٢)، قلتُ: سبحان الله! هم يبيتون ساجدين وقائمين ومع ذلك

يخافون الآخرة ويرجون رحمة ربهم؛ لأنهم يشعرون أنهم لم يعملوا! فتأملوا كيف

ذَكَرَ تَعَالَى خَوْفَهُمْ وَرَجَاءَهُمْ مع إتيانهم بهذه الطاعات.

* و أما جزاؤهم فقال: (**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ**)

يدخل فيه جميع نفوس الخلق لكونها نكرة في سياق النفي. أى: فلا يعلم أحد

(**مَا أَخْفَى لَهُمْ**) من الخير الكثير و النعيم الغزير و الفرح و السرور و اللذة و الحبور

(**مِنْ قُرْءَانٍ آعِينٍ**) مما تَقْرَأُ به العين و ينشرح له الصدر

* البخارى 4779 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَ لَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَ لَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ؓ: اقْرَءُوا إِنَّ شِئْتُمْ: - (**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرْءَانٍ آعِينٍ**) [السجدة: 17]

* مسلم (189) عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ؓ قَالَ:

سَمِعْتُهُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَرْفَعُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً

قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَيَقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ كَيْفَ وَ قَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَ أَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ فَيَقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مَلِكٍ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَ مِثْلُهُ وَ مِثْلُهُ وَ مِثْلُهُ وَ مِثْلُهُ فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَ عَشْرَةُ أَمْثَالِهِ وَ لَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَ لَدَتْ عَيْنُكَ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ قَالَ: رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنَزَلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي وَ خَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَ لَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَ لَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٌ قَالَ: وَ مُصَدِّقُهُ (معناه دليله وما يصدقه) فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: 17]

*فكما صلوا في الليل و دعوا و أخفوا العمل جازاهم من جنس عملهم فأخفى أجرهم

و لهذا قال:- (جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) 17

ينبه تعالى العقول على ما تقرر فيها من عدم تساوي المتفاوتين المتباينين و أن حكمته تقتضي عدم تساويهما فقال: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا) قد عمر قلبه بالإيمان و انقادت جوارحه لشرائعه و اقتضى إيمانه آثاره و موجباته من ترك مساخط الله التي يضر وجودها بالإيمان.

(كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا)

قد خرب قلبه و تعطل من الإيمان فلم يكن فيه وازع ديري فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل و الظلم من كل إثم و معصية و خرج بفسقه عن طاعة الله. أفيستوى هذان الشخصان؟.

(لَا يَسْتَوُونَ)

عقلا و شرعًا كما لا يستوى الليل و النهار و الضياء و الظلمة و كذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة. *كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الْبَاقِيَّةُ: 21]

وَ قَالَ تَعَالَى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص: 28] 18

(أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا) صَدَقَتْ قُلُوبُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ (وَعَمِلُوا) مُقْتَضَاهَا وَ هِيَ (الصَّالِحَاتِ) من فروض و نوافل

(فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى) الجنات التي هي مأوى اللذات و معدن الخيرات و محل الأفراح

و نعيم القلوب و النفوس و الأرواح و محل الخلود و جوار الملك المعبود و التمتع بقربه و النظر إلى وجهه و سماع خطابه.

(نَزَلًا) ضيافة و قرى

(بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم هي التي أوصلتهم لتلك المنازل العالية العالية التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال و لا بالجنود و الخدم و لا بالأولاد

بل و لا بالنفوس و الأرواح و لا يتقرب إليها بشيء أصلا سوى الإيمان و العمل الصالح **19**

جزاء الكافرين و اعراضهم عن آيات الله 20-22

(**وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا**) خرجوا عن الطاعة

(**فَأَوْثَنَهُمْ**) مقرهم و محل خلودهم

(**النَّارُ**) التي جمعت كل عذاب و شقاء و لا يُفْتَرُ عنهم العقاب ساعة.

(**كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا**) فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ

(**أُعِيدُوا فِيهَا**) ردوا إليها فذهب عنهم روح ذلك الفرج و اشتد عليهم الكرب.

يقال على وجه التقريع و التوبيخ:-

(**وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ**) فهذا عذاب النار الذي يكون فيه مقرهم و مأواهم

(**الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**) في الدنيا **20**

* و أما العذاب الذي قبل ذلك و مقدمة له و هو عذاب البرزخ فقد ذكر بقوله:

.....

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾
 وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾
 وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَوَكَانُوا إِتِّينًا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾
 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾
 أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ ﴿٢٦﴾
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ
 فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٣٠﴾
 فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣١﴾

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ) أى الفاسقين المكذبين نموذجًا

(مِنْ) بعض و جزء منه

(الْعَذَابِ الْأَدْنَى) هو عذاب البرزخ

فنديقهم طرفًا منه قبل أن يموتوا:-

1- إما بعذاب بالقتل و نحوه كما جرى لأهل بدر من المشركين

2- و إما عند الموت كما فى قوله تعالى

(وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُوىٰ)

ثم يكمل لهم العذاب الأدنى فى برزخهم... و هذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر و دلالتها ظاهرة

فإنه قال:- عَنْ أَبِي بَنِ كَعْبٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ}

قال: القمر و الدخان قد مضيا و البطشة و اللزام

قَالَ السُّدِّيُّ وَ غَيْرُهُ: لَمْ يَبْقَ بَيْتٌ مِّمَّةٍ إِلَّا دَخَلَهُ الْحُزْنُ عَلَى قَتِيلٍ لَهُمْ أَوْ أُسِيرٍ فَأَصِيبُوا أَوْ غَرِمُوا وَ مِنْهُمْ مَنْ جُمِعَ لَهُ الْأَمْرَانِ.

* و لما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى فى الدنيا قد لا يتصل بها الموت فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك

(دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ) عذاب النار

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) إليه و يتوبون من ذنوبهم

كما قال تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) 21

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ) لا أحد أظلم و أزيد تعدياً ممن ذكر بآيات ربه التي أوصلها إليه ربه

الذي يريد:-

1-تربيته

2-و تكميل نعمته على أيدي رسله:-

تأمّره و تذكره مصالحه الدينية و الدنيوية و تنهّاه عن مضاره الدينية و الدنيوية

التي تقتضي أن :-يقابلها بالإيمان و التسليم و الانقياد و الشكر

(فَرَأَوْهُ مُتَوَلِّيًا) (فَرَأَوْهُ مُتَوَلِّيًا)

فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي فلم يؤمن بها و لا اتبعها بل أعرض عنها و تركها وراء ظهره

فهذا من أكبر المجرمين الذين يستحقون شديد النقمة

و لهذا قال:- (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ) سَأَنْتَقِمُ مِمَّنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِنْتِقَامِ 22

لما ذكر تعالى آياته التي ذكر بها عباده و هو: القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ذكر أنه ليس ببدع من الكتب

و لا من جاء به بغريب من الرسل فقد أتى الله موسى

انزال التوراة على موسى و تكريم اتباعه 23-25

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)

الذي هو التوراة المصدقة للقرآن التي قد صدقها القرآن فتطابق حقهما و ثبت برهانهما

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ) شك

(مِنْ لِقَائِهِ) في لقائك بموسى ﷺ ليلة الإسراء و المعراج .

*البخارى 3239 - عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي مُوسَى رَجُلًا آدَمَ (من الأدمة و هي في الناس السمرة الشديدة) طَوَّالًا

جَعْدًا (غير سبط الشعر والشعر الجعد هو ما فيه التواء وتقبض) كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَاءَ

وَأَيْتُ عِيسَى رَجُلًا مَرْبُوعًا مَرْبُوعَ الْخَلْقِ (معتدل الخلقة مائلا إلى الحمرة) إِلَى الْحُمْرَةِ وَ الْبَيَاضِ سَبِطَ الرَّأْسِ (مسترسل الشعر)

وَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَ الدَّجَالِ فِي آيَاتٍ أَرَاهُنَّ اللَّهُ إِيَّاهُ (أي النبي ﷺ و وضع إياه موضع إياي على سبيل الالتفات):-

{فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ} [السجدة: 23]

قَالَ أَنَسٌ وَ أَبُو بَكْرَةَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «تَحْرُسُ الْمَلَائِكَةُ الْمَدِينَةَ مِنَ الدَّجَالِ»

(وَجَعَلْنَاهُ) الكتاب الذي آتيناه موسى

(هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ) يهتدون به في أصول دينهم و فروعهم و شرائعه موافقة لذلك الزمان في برى إسرائيل.
 *أما هذا القرآن الكريم فجعله الله هداية للناس كلهم لأنه هداية للخلق في أمر دينهم و دنياهم إلى يوم القيامة
 و ذلك لكمالهم و علوه (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّ حَكِيمٌ) 23

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ) من برى إسرائيل

(أَيُّمَّةً) علماء بالشرع و طرق الهداية مهتدين في أنفسهم

(يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) غيرهم بذلك الهدى

فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى و المؤمنون به منهم على قسمين:-

1- أئمة يهدون بأمر الله

2- و أتباع مهتدون بهم.

و القسم الأول:- أرفع الدرجات بعد درجة النبوة و الرسالة و هى درجة الصديقين

(لَمَّا صَبَرُوا) إنما نالوا هذه الدرجة العالية بـ:-

1- الصبر على التعلم و التعليم

2- و الدعوة إلى الله و الأذى في سبيله

3- و كفوا أنفسهم عن جماحها في المعاصي و استرسالها في الشهوات.

4- لَمَّا صَبَرُوا عَنِ الدُّنْيَا

و لَا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ حَتَّى يَتَحَامَى عَنِ الدُّنْيَا.

(وَكَاثُوا بِأَيَّتِنَا يُوَقِّنُونَ) وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين:- و هو [العلم التام الموجب للعمل]

*و إنما وصلوا إلى درجة اليقين لأنهم:-

1- تعلموا تعلمًا صحيحًا

2- و أخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل و يستدلون عليها بكثرة الدلائل حتى وصلوا لذاك

فبالصبر و اليقين تُنال الإمامة في الدين.

*قال سفيان بن عيينة: لما أخذوا برأس الامر جعلناهم أئمة

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

و ثمَّ مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل:-

1- منهم من أصاب فيها الحق

2- و منهم من أخطأه خطأ أو عمدًا 25

(إِنَّ رَبَّكَ) أيها الرسول (هُوَ بِفَصْلٍ) يقضى (بَيْنَهُمْ) بين المؤمنين و الكافرين من برى إسرائيل و غيرهم

(يَوْمَ الْقِيَمَةِ) بالعدل

(فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) من أمور الدين

○ و هذا القرآن يقص على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه فكل خلاف وقع بينهم و وجد فى القرآن تصديق لأحد القولين فهو الحق و ما عداه مما خالفه باطل.

(أَوَلَمْ يَهْدِ) يتبين (لَهُمْ) أى لهؤلاء المكذبين للرسول و يهدهم إلى الصواب.

اثبات القدرة الالهية و البعث 26-30

(كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ)

مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الَّذِينَ سَلَكَوا مَسْلَكَهُمْ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَ مُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُمْ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ قَوِيمِ السُّبُلِ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ وَ لَا عَيْنٌ وَ لَا أَثَرٌ؟ {هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} [مَرْيَمَ: 98]

(يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ) فيشاهدونها عياناً كقوم هود و صالح و قوم لوط.

أَيُّ: وَ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِ أَوْلِيكَ الْمُكَذِّبِينَ فَلَا يَرَوْنَ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنُهَا وَ يَعْمُرُهَا ذَهَبُوا مِنْهَا {كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا} [الْأَعْرَافِ: 92] كَمَا قَالَ: {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا} [النَّمْلِ: 52]

وَ قَالَ: {فَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ بُيُوتُهَا مُعْتَلَةٌ وَ قَصِرَ مَشْيُهَا فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْنَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْنَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الْحَجَّ: 45 46]

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) يستدل بها على :-

1- صدق الرسل التي جاءتهم

2- و بطلان ما هم عليه من الشرك و الشر

3- و على أن من فعل مثل فعلهم فَعِلَ بهم كما فَعِلَ بأشيعاه من قبل.

4- و على أن الله تعالى مجازى العباد و باعثهم للحشر و التناد.

(أَفَلَا يَسْمَعُونَ)

*آيات الله فيعونها فينتفعون بها فلو كان لهم سمع صحيح و عقل رجيح لم يقيموا على حالة يجزم بها بالهلاك.

*أَخْبَارَ مَنْ تَقَدَّمَ كَيْفَ كَانَ أَمْرُهُمْ؟ 26

(أَوَلَمْ يَرَوْا) بأبصارهم نعمتنا و كمال حكمتنا

(أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ) الماء لا نبات فيها

فيسوق الله المطر الذى لم يكن قبل موجوداً فيها فيفرغه فيها من السحاب أو من الأنهار.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَأَنَا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا} [الْكَهْفِ: 8] أى: يَبَسًا لا تنبت شيئاً

(فَخُذْ مِنْهُ زَرْعًا) نباتًا مختلف الأنواع

(تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ) أى نبات البهائم

(وَأَنْفُسُهُمْ) وهو طعام الآدميين.

(أَفَلَا يَبْصُرُونَ) تلك المنة التي أحيا الله بها البلاد و العباد

فيستبصرون فيهتدون بذلك البصر و تلك البصيرة إلى الصراط المستقيم و لكن غلب عليهم العمى

و استولت عليهم الغفلة فلم يبصروا في ذلك بصر الرجال

و إنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة و مجرد العادة فلم يوفقوا للخير.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَيْنًا وَقَضْبًا.

وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَائِقِ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [عَبَسَ: 24-32] 27

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ)

يستعجل المجرمون بالعذاب الذى وعدوا به على التكذيب جهلا منهم و معاندة

مَتَى تُنْصِرُ عَلَيْنَا يَا مُحَمَّدٌ؟ كَمَا تَزْعُمُ أَنَّ لَكَ وَقْتًا تُدَالِ عَلَيْنَا وَ يُنْتَقِمَ لَكَ مِنَّا فَمَتَى يَكُونُ هَذَا؟

مَا نَرَاكَ أَنْتَ وَ أَصْحَابَكَ إِلَّا مُحْتَفِينَ خَائِفِينَ ذَلِيلِينَ!

وَ إِنَّمَا الْمُرَادُ الْفَتْحُ الَّذِي هُوَ الْقَضَاءُ وَ الْفُصْلُ كَقَوْلِهِ {فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

[الشُّعْرَاءُ: 118] وَ كَقَوْلِهِ: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} [سَبَأُ: 26]

وَ قَالَ تَعَالَى: {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [إِبْرَاهِيمَ: 15] {وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا} [البَقَرَةُ: 89]

وَ قَالَ: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ} [الْأَنْقَالَ: 19]

(إِنْ كُنْتُمْ) أيها الرسل (صَادِقِينَ) فى دعواكم.

(قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ) الذى يحصل به عقابكم لا تستفيدون به شيئاً فلو كان إذا حصل حصل إمهالكم لتستدركوا

ما فاتكم حين صار الأمر عندكم يقيناً لكان لذلك وجه و لكن إذا جاء يوم الفتح انقضى الأمر و لم يبق للمحنة

محل 28

ف—(لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ) لأنه صار إيمان ضرورة

(وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) يمهلون فيؤخر عنهم العذاب فيستدركون أمرهم.

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) لما وصل خطابهم إلى حالة الجهل و استعجال العذاب.

(وَأَنْظِرْ) الأمر الذى يحل بهم فإنه لا بد منه و لكن له أجل إذا جاء لا يتقدم و لا يتأخر.

أَعْرِضْ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ كَقَوْلِهِ:

{اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: 106]

وَانتَظِرْ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ وَ سَيَنْصُرُكَ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ إِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

(إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ) بك ريب المنون و متربصون بكم دوائر السوء و العاقبة للتقوى.

{أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّهُ الْمُتُونِ} [الطور: 30]

وَ سَتَرَى أَنْتَ عَاقِبَةَ صَبْرِكَ عَلَيْهِمْ وَ عَلَى آدَاءِ رَسُولِ اللَّهِ فِي نُصْرَتِكَ وَ تَأْيِيدِكَ
وَ سَيَجِدُونَ غَبَّ مَا يَنْتَظِرُونَهُ فِيكَ وَ فِي أَصْحَابِكَ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِ اللَّهِ لَهُمْ وَ حُلُولِ عَذَابِهِ بِهِمْ
وَ حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ 30

33- سورة الأحزاب - مدنية - بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾
وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَىٰ تَطْهَرُونَ
مِنْهُنَّ أُمّهَتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ
﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلِإِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ
وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾
النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ
فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا
كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

*أحمد 21207 - عَنْ زُرَّادٍ قَالَ: قَالَ لِي أَبِي بْنُ كَعْبٍ: "كَأَيِّنْ تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَحْزَابِ؟ أَوْ كَأَيِّنْ تَعُدُّهَا؟" قَالَ: قُلْتُ لَهُ: ثَلَاثًا وَ سَبْعِينَ آيَةً فَقَالَ: قَطُّ لَقَدْ رَأَيْتُهَا وَ إِنَّهَا لَتُعَادِلُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَ لَقَدْ قَرَأْنَا فِيهَا: (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنِيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

توجيهات للنبي 3-1

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) الذي من الله عليه بالنبوة و اختصه بوحيه و فضله على سائر الخلق

(اتَّقِ اللَّهَ)

اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه التي أنت أولى بها من غيرك و التي يجب عليك منها أعظم من سواك فامتثل أوامره و نواهيه و بلغ رسالاته و أد إلى عباده وحيه و ابدل النصيحة للخلق.

(وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) لَا تَسْمَعْ مِنْهُمْ وَ لَا تَسْتَشِرْهُمْ

* و لا يصدنك عن هذا المقصود صاد و لا يردك عنه راد فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله و رسوله و لا منافق قد استبطن التكذيب و الكفر و أظهر ضده.

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة فلا تطعمهم في بعض الأمور التي تنقض التقوى و تناقضها و لا تتبع أهواءهم فيضلوك عن الصواب.

فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ تَتَّبِعَ أَوَامِرَهُ وَ تُطِيعَهُ (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا) بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ (حَكِيمًا) فِي أَقْوَالِهِ وَ أَعْمَالِهِ 1

(و) لكن (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) مِنْ قُرْآنٍ وَ سُنَّةٍ - فإنه هو الهدى و الرحمة و انجُ بذلك ثواب ربك

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ-يجازيكم بـم يعلمه منكم من الخير و الشر 2

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ وَأَحْوَالِكَ

○فإن وقع في قلبك أنك إن لم تطعمهم في أهوائهم المضلة حصل عليك منهم ضرر أو حصل نقص في هداية الخلق فادفع ذلك عن نفسك و استعمل ما يقاومه و يقاوم غيره و هو التوكل على الله بأن تعتمد على ربك اعتماد مــــن:-
لا يملك لنفسه ضرًا و لا نفعًا و لا موتًا و لا حياة و لا نشورًا في سلامتك من شرهم و في إقامة الدين الذي أمرت به و ثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي: حال كان.

(وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَ أَنَابَ إِلَيْهِ.

○توكل إليه الأمور فيقوم بها و بما هو أصلح للعبد و ذلك لعلمه بمصالح عبده من حيث لا يعلم العبد و قدرته على إيصالها إليه من حيث لا يقدر عليها العبد و أنه أرحم بعبده من نفسه و من والديه و أراف به من كل أحد خصوصًا خواص عبيده الذين لم يزل يربهم ببره و يُدرُّ عليهم بركاته الظاهرة و الباطنة خصوصًا و قد أمره بإلقاء أموره إليه و وعده فهناك لا تسأل عن كل أمر ييسر و صعب يسهل و خطوب تهون و كرب تزول و أحوال و حوائج تقضى و بركات تنزل و نقم تدفع و شرور ترفع.
و هناك ترى العبد الضعيف الذي فوض أمره لسيده قد قام بأمور لا تقوم بها أمة من الناس و قد سهل الله عليه ما كان يصعب على فحول الرجال و بالله المستعان.

تحريم الظهار و التبنى 4-5

من الاية (4-5) يعاتب تعالى عباده عن التكلم بما ادعوههم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين و مواليتكم و ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به و لكن ما تعمدت قلوبكم و كان الله غفورًا رحيمًا لا حقيقة له من الأقوال و لم يجعله الله تعالى كما قالوا فإن ذلك القول منكم كذب و زور يترتب عليه منكرات من الشرع. و هذه قاعدة عامة في التكلم في كل شيء و الإخبار بوقوع و وجود ما لم يجعله الله تعالى. و لكن خص هذه الأشياء المذكورة لوقوعها و شدة الحاجة إلى بيانها فقال:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)

هذا لا يوجد فإياكم أن تقولوا عن أحد:- إن له قلبين في جوفه فتكونوا كاذبين على الحلقة الإلهية.

الاعجاز العلمي:

و لم تسجل كتب الطب ومراجعته العلمية في ذلك التخصص أو غيره على مدى تاريخها وجود إنسان واحد يولد بقلبين حتى في حالات التوائم (السيامية) الملتصقة أو الملتصقة فقد يكون لكل توأم منهما قلب منفصل و قد يكون لهما قلب واحد و لكن يستحيل أن تكون لهما ثلاثة قلوب [الرابط](#)

(وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ فِي الْحَرَمَةِ كَحَرَمَةِ آبَائِكُمْ)

بأن يقول أحذكم لزوجته: « **أنت على كظهر أمي أو كأمي** » فما جعلهن الله (**أُمَّهَاتِكُمْ**)

أملك من ولدتك و صارت أعظم النساء عليك حرمة و تحريمًا و زوجتك أحل النساء لك فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟ هذا أمر لا يجوز كما قال تعالى:

(الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا كَمَا قَالَ فِي آثَاءِ السُّورَةِ:

إِنَّمَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا [الأحزاب:40]

* و قد كان هذا طلاقًا في الجاهلية

(وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ)

و الأدعياء الولد الذي كان الرجل يدعيه و هو ليس له أو يُدعى إليه بسبب تنبيه إياه كما كان الأمر بالجاهلية و أول الإسلام

(أَبْنَاءَكُمْ) في الشرع

○ فأراد الله تعالى أن يطله و يزيله فقدم بين يدي ذلك بيان قبحه و أنه باطل و كذب و كل باطل و كذب لا يوجد في شرع الله و لا يتصف به عباد الله.

○ يقول تعالى: فالله لم يجعل الأدياء الذين تدعونهم أو يدعون إليكم أبناءكم فإن أبناءكم في الحقيقة من ولدتهم و كانوا منكم

○ و أما هؤلاء الأدياء من غيركم فلا جعل الله هذا كهذا.

(ذَلِكَ) القول الذي تقولون في الدعوى: إنه ابن فلان الذي ادعاه أو والده فلان

(قَوْلَكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ) بالفم قول لا حقيقة له و لا معنى له ولا يعتد به

* تَبْنِيَكُمْ لَهُمْ قَوْلٌ لَا يَفْتَضِي أَنْ يَكُونَ ابْنًا حَقِيقًا فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ صُلْبِ رَجُلٍ آخَرَ فَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَبَوَانِ كَمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِلْبَشَرِ الْوَاحِدِ قَلْبَانِ.

(وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ) العدل و اليقين و الصدق

فلذلك أمركم باتباعه على قوله و شرعه فقلوله حق و شرعه حق و الأقوال و الأفعال الباطلة لا تنسب إليه بوجه من الوجوه و ليست من هدايته

(وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) لأنه لا يهدى إلا إلى السبيل المستقيمة و الطرق الصادقة.

* و إن كان ذلك واقعًا بمشيئته فمشيئته عامة لكل ما وجد من خير و شر 4

ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى المتضمنة للقول الباطل فقال:

(ادْعُوهُمْ) انسبواهم أي: الأدياء

(لَا بَأْسَ بِهِمْ) الذين ولدوهم

(هُوَ أَقْسَطُ) أعدل و أقوم و أهدى (عِنْدَ اللَّهِ)

* وَ قَدْ كَانُوا يُعَامِلُونَهُمْ مُعَامَلَةَ الْأَنْبَاءِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ فِي الْخُلُوةِ بِالْمَحَارِمِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ
* وَ لِهَذَا لَمَّا نُسِخَ هَذَا الْحُكْمُ أَبَاحَ تَعَالَى زَوْجَةَ الدَّعِيِّ وَ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ زَوْجَةَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ

و قال: {لَيْكُ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا} [الأحزاب: 37]

وَ قَالَ فِي آيَةِ التَّحْرِيمِ: {وَ حَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ} [النساء: 23] احْتِرَازًا عَنْ زَوْجَةِ الدَّعِيِّ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الصُّلْبِ

* فَأَمَّا دَعْوَةُ الْغَيْرِ ابْنًا عَلَى سَبِيلِ التَّكْرِيمِ وَ التَّحْبِيبِ فَلَيْسَ مِمَّا نُهِى عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ

مسلم :- 2151- عن أنس بن مالك قال لى رسول الله ﷺ :- "يا بنى"

* الصحيح المسند من أسباب النزول:- البخارى 4782 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

«أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ»

{ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ} [الأحزاب: 5]

(فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ) الحقيقيين

(فَلِاخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ) فى دين الله {وَمَوَالِكُمْ} فى ذلك

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِرَدِّ أَنْسَابِ الْأَدْعِيَاءِ إِلَى آبَائِهِمْ إِنْ عُرِفُوا فَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوا آبَاءَهُمْ فَهُمْ إِخْوَانُهُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوَالِيَهُمْ أَيُّ: عَوْضًا عَمَّا فَاتَهُمْ مِنَ النَّسَبِ.

وَ لِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ -يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء «أَنْتَ أَخُونَا وَ مَوْلَانَا» {البخارى 2699}

* البخارى 3508 - عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

«لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ - وَ هُوَ يَعْلَمُهُ - إِلَّا كَفَرَ وَ مَنْ ادَّعَى قَوْمًا لَيْسَ لَهُ فِيهِمْ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»

فادعواهم بالأخوة الإيمانية الصادقة و الموالاة على ذلك فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم لا يجوز فعلها.

* و أما دعاؤهم لآبائهم فإن علموا دعوا إليهم

* و إن لم يعلموا اقتصر على ما يعلم منهم و هو أخوة الدين و الموالاة فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بآبائهم

عذر في دعوتهم إلى من تبناهم لأن المحذور لا يزول بذلك.

(وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ)

1- بأن سبق على لسان أحدكم دعوته إلى من تبناه فهذا غير مؤاخذ به

2- أو علم أبوه ظاهراً فدعوتموه إليه و هو في الباطن غير أبيه فليس عليكم في ذلك حرج إذا كان خطأ

* إِذَا نَسَبْتُمْ بَعْضَهُمْ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ فِي الْحَقِيقَةِ خَطَأً بَعْدَ الْاجْتِهَادِ وَ اسْتِفْرَاحِ الْوُسْعِ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَضَعَ الْحَرَجَ فِي الْخَطِإِ وَ رَفَعَ إِثْمَهُ كَمَا أَرَشَدَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ آمِرًا عِبَادَهُ أَنْ يَقُولُوا: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [البقرة: 286]

وَ ثَبَّتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (126) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: - قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ "

وَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (7352) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ "

(وَلَكِنْ) يؤاخذكم بـ (مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) من الكلام بما لا يجوز .

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا) غفر لكم

(رَجِيمًا) و رحمكم حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم و دنياكم حيث لم يعاقبكم بما سلف و سمح لكم بما أخطأتم به فله الحمد تعالى .

وَ إِنَّمَا الْإِثْمُ عَلَى مَنْ تَعَمَّدَ الْبَاطِلَ كَمَا قَالَ تَعَالَى

{لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} 5

يخبر تعالى المؤمنين خبرًا يعرفون به حالة الرسول ﷺ و مرتبته فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة

فقال: (الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

أقرب ما للإنسان و أولى ما له نفسه فالرسول أولى به من نفسه لأنه عليه الصلاة و السلام:-

1-بذل لهم من النصح و الشفقة و الرأفة ما كان به أرحم الخلق و أراهم

2-فرسول الله أعظم الخلق منةً عليهم من كل أحد

3-فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير و لا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على يديه و بسببه.

فلذلك وجب عليهم إذا تعارض مراد النفس أو مراد أحد من الناس مع مراد الرسول:-

1-أن يقدم مراد الرسول و أن لا يعارض قول الرسول بقول أحد كائنًا من كان

2-و أن يفدوه بأنفسهم و أموالهم و أولادهم

3-و يقدموا محبته على الخلق كلهم

4-و ألا يقولوا حتى يقول و لا يتقدموا بين يديه.

و هو ﷺ أب للمؤمنين كما في قراءة بعض الصحابة يريهم كما يري الوالد أولاده.

فترتب على هذه الأبوة أن كان نساؤه أمهاتهم أى:-فى الحرمة و الاحترام و الإكرام لا في الخلوة و المحرمية

و كأن هذا مقدمة لما سيأتي فى قصة زيد بن حارثة الذي كان قبل يُدعى: « زيد بن محمد »

حتى أنزل الله (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ)

فقطع نسبه و انتسابه منه فأخبر في هذه الآية أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول فلا مزية لأحد عن أحد

و إن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة فإن النسب الإيمانى لم ينقطع عنه فلا يحزن و لا يأسف.
و ترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين أنهن لا يحلن لأحد من بعده كما الله صرح بذلك:-
(وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا)

*قَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى شَفَقَةَ رَسُولِهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ وَ نَصَحَهُ لَهُمْ فَجَعَلَهُ أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ حَكَّمَهُ فِيهِمْ مُقَدِّمًا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}

[النساء: 65]

*البخارى 14: قال النبى ﷺ وَ الَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَ مَالِهِ وَ وَلَدِهِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ

وَ فِي الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَ اللَّهُ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِى.
فَقَالَ: لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ".

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى مِنْ نَفْسِى. فَقَالَ: "الآنَ يَا عُمَرُ"
وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}.

*البخارى 4781 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-

مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَ أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ أَقْرَبُ وَإِنْ شِئْتُمْ: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}

[الاحزاب: 6]

فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصْبَتُهُ مَنْ كَانُوا فَإِنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِرْهُ فَأَنَا مَوْلَاهُ "

(وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ) فِي الْحُرْمَةِ وَ الْإِحْتِرَامِ وَ الْإِكْرَامِ وَ التَّوْقِيرِ وَ الْإِعْظَامِ
وَ لَكِنْ لَا تَجُوزُ الْخُلُوءَةُ بِهِنَّ وَ لَا يَنْتَشِرُ التَّحْرِيمُ إِلَى بَنَاتِهِنَّ وَ أَخَوَاتِهِنَّ بِالْإِجْمَاعِ

(وَأُولُوا الْأَرْحَامِ) الْأَقَارِبُ قَرَّبُوا أَوْ بَعَدُوا

(بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ)

ففى حكمه فيرث بعضهم بعضاً و يبر بعضهم بعضاً فهم أولى من الحلف و النصرة.

* و الأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب دون ذوى الأرحام فقطع تعالى التوارث بذلك و جعله للأقارب لطفاً منه و حكمة

فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة لحصل من الفساد و الشر و التحيل لحرمان الأقارب من الميراث شيء كثير.

سواء كان الأقارب (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) غير مهاجرين (وَالْمُهَاجِرِينَ) فإن ذوى الأرحام مقدمون في ذلك

و هذه الآية حجة على ولاية ذوى الأرحام في جميع الولايات كولاية النكاح و المال و غير ذلك.

وَ هَذِهِ نَاسِخَةٌ لِمَا كَانَ قَبْلَهَا مِنَ التَّوَارِثِ بِالْحَلْفِ وَ الْمُوَاخَاةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ

كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: كَانَ الْمُهَاجِرِيُّ يَرِثُ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ قَرَابَاتِهِ دَوَى رَحِمِهِ لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى بَيْنَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا)

ليس لهم حق مفروض و إنما هو بإرادتكم إن شئتم أن تبرعوا لهم تبرعاً و تعطوهم معروفاً منكم ذهب الميراث و بقى النصر و البر و الصلة و الإحسان و الوصية.

(كَانَ ذَلِكَ) الحكم المذكور و هو أن أُولِي الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ

(فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)

حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ مُقَدَّرٌ مَكْتُوبٌ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي لَا يُبَدَّلُ وَ لَا يُغَيَّرُ فَلَا بَدَّ مِنْ نَفُوذِهِ 6

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لَيْسَ لَكَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا لَوْ كَانَ اللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَآ وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَأَهَّلِ يَتْرَبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا لَإِلَهِهِمْ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ إِلَّا نَذْرًا كَانَ عَاهِدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ)

يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عمومًا و من أولى العزم - و هم هؤلاء الخمسة المذكورون -

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمْ) خصوصًا (مِيثَاقًا غَلِيظًا) عهدهم الثقيل المؤكد على:-

1- القيام بدين الله

2- و الجهاد في سبيله

3- و إبلاغ رسالته

4- و التعاون و التناصر و الاتفاق

و أن هذا سبيل قد مشى الأنبياء المتقدمون حتى ختموا بسيدهم و أفضلهم محمد ﷺ و أمر الناس بالاعتداء بهم.

كقوله {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: 81]

* وَ قَدْ صَرَّحَ بِذِكْرِهِمْ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَ فِي قَوْلِهِ:

{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ

وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى: 13]

فَذَكَرَ الطَّرَفَيْنِ وَ الْوَسْطَ الْفَاتِحَ وَ الْخَاتَمَ وَ مِنْ بَيْنَهُمَا عَلَىٰ هَذَا التَّرْتِيبِ.

فَهَذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الَّتِي أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِهَا كَمَا قَالَ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَبْدًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْخَاتَمِ لِشَرِّهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَ سَلَامُهُ عَلَيْهِ ثُمَّ رَتَّبَهُمْ بِحَسَبِ وَجُودِهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَ سَلَامُهُ عَلَيْهِمْ 7

(لَيْسَ سَلِّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ) عمّا أجابتهم به أممهم

و سيسأل الله الأنبياء و أتباعهم عن هذا العهد الغليظ هل وفوا فيه و صدقوا؟

فيثيبهم جنات النعيم؟ أم كفروا فيعذبهم العذاب الأليم؟ قال تعالى: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ)

قال ابن القيم في اغاثة اللهفان

فإذا سئل الصادقون و حوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟
قال مقاتل: "يقول تعالى: أخذنا ميثاقهم لكي يسأل الله الصادقين يعرى النبيين عن تبليغ الرسالة"
و قال مجاهد: "يسأل المبلغين المؤدين عن الرسل يعرى:-
هل بلغوا عنهم كما يسأل الرسل، هل بلغوا عن الله تعالى؟
و التحقيق:

أن الآية تتناول هذا و هذا فالصادقون هم الرسل و المبلغون عنهم
فيسأل الرسل عن تبليغ رسالاته و يسأل المبلغين عنهم عن تبليغ ما بلغتهم الرسل
ثم يسأل الذين بلغتهم الرسالة ماذا أجابوا المرسلين كقوله ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 65]

(وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ) مِنْ أَمَمِهِمْ

{عَذَابًا أَلِيمًا} مَوْجِعًا 8

(يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) يذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم و يحثهم على شكرها

غزوتي الاحزاب و بنى قريظة 27-9

(إِذْ) حين (جَاءَتْكُمْ)

(جُمُودٌ) أهل مكة و الحجاز من فوقهم و أهل نجد من أسفل منهم و تعاقدوا و تعاهدوا على استئصال الرسول
و الصحابة و ذلك في وقعة الخندق.

* يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نِعْمَتِهِ وَ فَضْلِهِ وَ إِحْسَانِهِ إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَرْفِهِ أَعْدَاءَهُمْ وَ هَزْمِهِ إِيَّاهُمْ عَامَ تَأَلَّبُوا عَلَيْهِمْ وَ حَزَبُوا وَ ذَلِكَ عَامَ الْخَنْدَقِ وَ ذَلِكَ فِي شَوَالِ سَنَةِ خَمْسٍ مِنَ الْهَجْرَةِ عَلَى الصَّحِيحِ الْمَشْهُورِ.
وَ قَالَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ وَغَيْرُهُ كَانَتْ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ.

وَ كَانَ سَبَبُ قُدُومِ الْأَحْزَابِ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَشْرَافِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ أَجْلَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى خَيْبَرَ مِنْهُمْ:- سَلَامُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ وَ سَلَامُ بْنُ مِشْكَمٍ وَ كِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ خَرَجُوا إِلَى مَكَّةَ وَ اجْتَمَعُوا بِأَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَ أَلْبُوهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَ وَعَدُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمُ النَّصْرَ وَ الْإِعَانَةَ.
فَأَجَابُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى غَطَفَانَ فَدَعَوْهُمْ فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ أَيْضًا.

وَ خَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي أَحَابِيشِهَا وَ مَنْ تَابَعَهَا وَ قَائِدُهُمْ أَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ وَ عَلَى غَطَفَانَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ بَدْرِ وَ الْجَمِيعُ قَرِيبٌ مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ

فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَسِيرِهِمْ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِمَّا يَلِي الشَّرْقَ وَ ذَلِكَ بِإِشَارَةِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ فَعَمِلَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ وَ اجْتَهَدُوا وَ نَقَلَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ وَ حَفَرُ وَ كَانَ فِي حَفْرِهِ ذَلِكَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ وَ دَلَائِلُ وَاضِحَاتٌ. وَ جَاءَ الْمُشْرِكُونَ فَزَلُّوا شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ قَرِيبًا مِنْ أَحَدٍ وَ نَزَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فِي أَعَالِي أَرْضِ الْمَدِينَةِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ}

وَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَ هُمْ نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافٍ وَ قِيلَ: سَبْعُمِائَةٍ وَ أَسْنَدُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى سَلْعٍ وَ وُجُوهُهُمْ إِلَى نَحْوِ الْعَدُوِّ وَ الْخَنْدَقُ حَفِيرٌ لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَهُمْ يَحْجُبُ الرَّجَالَةَ وَ الْخِيَالَةَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِمْ وَ جَعَلَ النِّسَاءُ وَ الذَّرَارِيُّ فِي أَطَامِ الْمَدِينَةِ * وَ كَانَتْ بَنُو قَرِيطَةَ - وَ هُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ - لَهُمْ حَصْنٌ شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ وَ لَهُمْ عَهْدٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَ ذِمَّةٌ وَ هُمْ قَرِيبٌ مِنْ ثَمَامِيَّةٍ مُقَاتِلٍ فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ حَيٌّ بَنُ أَخْطَبِ النَّضْرِيِّ الْيَهُودِيُّ فَلَمْ يَزَلْ بِهِمْ حَتَّى نَقَضُوا الْعَهْدَ وَ مَالُوا الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَظُمَ الْخُطْبُ وَ اشْتَدَّ الْأَمْرُ وَ ضَاقَ الْحَالُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا} .

* وَ مَكَثُوا مُحَاصِرِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَ أَصْحَابِهِ قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِمْ وَ لَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ إِلَّا أَنَّ عَمْرُو بْنَ عَبْدِ وَدِّ الْعَامِرِيِّ - وَ كَانَ مِنَ الْفُرْسَانِ الشُّجْعَانِ الْمَشْهُورِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - رَكِبَ وَ مَعَهُ فَوَارِسُ فَافْتَحَمُوا الْخَنْدَقَ وَ خَلَصُوا إِلَى نَاحِيَةِ الْمُسْلِمِينَ فَندَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْلَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَبْرُزْ إِلَيْهِ أَحَدٌ فَأَمَرَ عَلِيًّا فَخَرَجَ إِلَيْهِ فَتَجَاوَلَا سَاعَةً ثُمَّ قَتَلَهُ عَلِيٌّ ﷺ فَكَانَ عَلَامَةً عَلَى النَّصْرِ.

وَ مَكَثُوا مُحَاصِرِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَ أَصْحَابِهِ قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِمْ وَ لَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ إِلَّا أَنَّ عَمْرُو بْنَ عَبْدِ وَدِّ الْعَامِرِيِّ - وَ كَانَ مِنَ الْفُرْسَانِ الشُّجْعَانِ الْمَشْهُورِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - رَكِبَ وَ مَعَهُ فَوَارِسُ فَافْتَحَمُوا الْخَنْدَقَ وَ خَلَصُوا إِلَى نَاحِيَةِ الْمُسْلِمِينَ فَندَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْلَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَبْرُزْ إِلَيْهِ أَحَدٌ فَأَمَرَ عَلِيًّا فَخَرَجَ إِلَيْهِ فَتَجَاوَلَا سَاعَةً ثُمَّ قَتَلَهُ عَلِيٌّ ﷺ فَكَانَ عَلَامَةً عَلَى النَّصْرِ.

* ثُمَّ أَرْسَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْأَحْزَابِ رِيحًا شَدِيدَةً الْهُبوبِ قَوِيَّةً حَتَّى لَمْ تَبْقَ لَهُمْ خِيَمَةٌ وَ لَا شَيْءٌ وَ لَا تُوقَدُ لَهُمْ نَارٌ وَ لَا يَقْرَأُ لَهُمْ قَرَارٌ حَتَّى ارْتَحَلُوا خَائِبِينَ خَاسِرِينَ

كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا

قَالَ مُجَاهِدٌ: وَ هِيَ الصَّبَا وَ يُؤَيِّدُهُ الْحَدِيثُ الْآخَرُ: -نُصِرْتُ بِالصَّبَا (الريح الشرقية) وَ أَهْلِكْتُ عَادٌ بِالذَّبُورِ (مسلم 900)

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا) الْمَلَائِكَةُ زَلَزَلَتْهُمْ وَ أَلْقَتْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَ الْخَوْفَ (لَمْ تَرَوْهَا)

فَكَانَ رَئِيسُ كُلِّ قَبِيلَةٍ يَقُولُ: يَا بَنِي فُلَانٍ إِلَى

فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ فَيَقُولُ: النَّجَاءُ النَّجَاءُ. لَمَّا أَلْقَى اللَّهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرُّعْبِ.

* مسلم (1788) عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: -كُنَّا عِنْدَ حَذِيفَةَ فَقَالَ رَجُلٌ:-

لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَ أَبْلَيْتُ فَقَالَ حَذِيفَةُ ﷺ: أَنْتَ كُنتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟

لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَ أَخَذْتُنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَ قُرَّ (البرد)

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»
 فَسَكَنَّا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ:- «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»
 فَسَكَنَّا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ فَقَالَ:- «فُمْ يَا حُدَيْفَةُ فَأَتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»

فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ قَالَ: «أَذْهَبْ فَأَتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَ لَا تَذَعْرَهُمْ عَلَيَّ»

(لا تفزعهم علي ولا تحركهم علي وقيل معناه لا تنفرهم وهو قريب من المعنى الأول والمراد لا تحركهم عليك فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضرا علي لأنك رسول وصاحب)

فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ (يدفنه ويدنيه) بِالنَّارِ
 فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ (مقبضها وكبد كل شيء وسطه) فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:-
 «و لَا تَذَعْرَهُمْ عَلَيَّ»

وَ لَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَ أَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَامِ

(لم يجد البرد الذي يجده الناس ولا من تلك الريح الشديدة شيئا بل عافاه الله منه ببركة إجابته للنبي ﷺ وذهابه فيما وجهه له ودعائه ﷺ له واستمر ذلك اللطف به ومعافاته من البرد حتى عاد إلى النبي ﷺ فلما عاد ووصل عاد إليه البرد الذي يجده الناس ولفظ الحمام عربية وهو مذكر مشتق من الحميم وهو الماء الحار)

فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَ فَرَعْتُ قُرْتُ (بردت) فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ
 (كساء مفتوح من قدام يلبس فوق الثياب) كَأَنَّهُ عَلَيْهِ يُصَلَّى فِيهَا فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ (طلع على الفجر)
 قَالَ: «فُمْ يَا نَوْمَانُ» (كثير النوم وأكثر ما يستعمل في النداء كما استعمله هنا)

(وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) لا يخفى عليه من ذلك شيء 9

(إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ) أى الاحزاب من أعلى الوادى من جهة المشرق

(وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) بنو قريظة من بطن الوادى من جهة المغرب

* فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة و الأمر كما وصف الله:-

(وَإِذْ زَاغَتْ) (شخصت) (الْأَبْصَارُ) من شدة الحريرة و الدهشة

(وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَ الْفَرَعِ

غلب اليأس المنافقين و كثرت الأقاويل

(وَتَطَّنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا) أنه لا ينصر دينه و لا يعلى كلمته.

* قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: ظَنَّ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الدَّائِرَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنَّ اللَّهَ سَيَفْعَلُ ذَلِكَ

* وَ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقٍ فِي قَوْلِهِ: {وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَطَّنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}

ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ظَنٍّْ وَ نَجَمَ النِّفَاقُ حَتَّى قَالَ مُعْتَبُ بْنُ قُشَيْرٍ -أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ:-

كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَ قَيْصَرَ وَ أَحَدُنَا لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْغَائِطِ 10

(هَٰذَاكَ أَتْبَلَى الْمُؤْمِنُونَ) بهذه الفتنة العظيمة

(وَزُلْزِلُوا) اضطربوا (زَلْزَالًا شَدِيدًا) بالخوف و القلق و الجوع ليتبين إيمانهم و يزيد إيقانهم

فظهر - و لله الحمد- من إيمانهم و شدة يقينهم ما فاقوا فيه الأولين و الآخرين.

*و عندما اشتد الكرب و تفاقمت الشدائد صار إيمانهم عين اليقين

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا

*يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ ذَلِكَ الْحَالِ حِينَ نَزَلَتِ الْأَحْزَابُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَ الْمُسْلِمُونَ مَحْصُورُونَ فِي غَايَةِ الْجُهْدِ

وَ الضِّيقِ وَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ: أَنَّهُمْ ابْتُلُوا وَ اخْتَبُرُوا وَ زُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا **11**

*هنالك تبين نفاق المنافقين و ظهر ما كانوا يضمرون قال تعالى:-

(**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**

و هذه عادة المنافق(الَّذِي فِي قَلْبِهِ شُبُهَةٌ) عند الشدة و المحنة:-

1-لا يثبت إيمانه و ينظر بعقله القاصر إلى الحالة القاصرة و يصدق ظنه.

2-فَتَنَقَّسَ بِمَا يَجِدُهُ مِنَ الْوَسْوَاسِ فِي نَفْسِهِ ل_____:-

1-**ضَعُفَ إِيْمَانِهِ**

2-و **شِدَّةَ مَا هُوَ فِيهِ** مِنْ ضِيقِ الْحَالِ.

(**مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ**) من النصر و التمكين

(**إِلَّا غُرُورًا**) (إلا باطلا من القول و غرورًا فلا تصدقوه **12**

(**وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ**

*من المنافقين بعد ما جزعوا و قلَّ صبرهم و صاروا أيضًا من المخدولين فلا صبروا بأنفسهم و لا تركوا الناس

من شرهم

فقالت هذه الطائفة: (**يَا أَهْلَ يَثْرِبَ**) يريدون «**يا أهل المدينة**» فنادوهم باسم الوطن المنبئ عن التسمية:-

فيه إشارة إلى أن الدين و الأخوة الإيمانية ليس له في قلوبهم قدر و أن الذي حملهم على ذلك مجرد الخور

الطبيعي.

(**لَا مَقَامَ لَكُمْ**) في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة و كانوا عسكروا دون الخندق و خارج المدينة

لا إقامة لكم في معركة خاسرة

(**فَارْجِعُوا**) إِلَى بُيُوتِكُمْ وَ مَنَازِلِكُمْ (إلى المدينة)

فهذه الطائفة تخذل عن الجهاد و تبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم و يأمرهم بترك القتال

فهذه الطائفة شر الطوائف و أضرها و طائفة أخرى دونهم أصابهم الجبن و الجزع و أحبوا أن ينخلزلوا عن

الصفوف

كَمَا جَاءَ الْبَخَارِيُّ 3905:- قال النبي ﷺ «إِنِّي أَرَيْتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ» وَ هُمَا الْحَرَّتَانِ

*فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة و هم الذين قال الله فيهم:

(وَيَسْتَعِذُّونَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ أَلَيْسَ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ) بَيُّوتُنَا نَخَافُ عَلَيْهَا السَّرَقَ - عليها الخطر (غير محصنة) و نخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء و نحن غُيِّبَ عنها فَأَذَّنَ لَنَا نَرْجِعُ إِلَيْهَا فَنَحْرُسُهَا وَ هُمْ كَذِبَةٌ فِي ذَلِكَ.

(وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ) لَيْسَتْ كَمَا يَزْعُمُونَ

(إِنْ يُرِيدُونَ) ما قصدهم

(إِلَّا فِرَارًا) هَرَبًا مِنَ الرَّحْفِ

*و لكن جعلوا هذا الكلام وسيلة و عذرًا لهم فهؤلاء قل إيمانهم و ليس له ثبوت عند اشتداد المحن 13

(وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ) لو دخل الكفار إليها

(مِنْ أَقْطَارِهَا) نواحيها و استولوا عليها - لا كان ذلك -

(ثُمَّ سُيِّلُوا) ثم سئل هؤلاء المنافقون

(الْفِتْنَةَ) الشرك بالله والرجوع عن الإسلام

(لَا تَوَهَا) لأجابوا إلى ذلك مبادرين

(وَمَا تَلَبَّثُوا بِهِمَا) ما تأخروا عن الشرك (إِلَّا بِسِيرًا)

*ليس لهم منعة و لا تصلُّبٌ على الدين

بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء يعطونهم ما طلبوا و يوافقونهم على كفرهم هذه حالهم. 14

و الحال أنهم: - (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ) يَذْكُرُهُمْ بِمَا كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ

(مِنْ قَبْلُ) هَذَا الْخَوْفِ

(لَا يُولُّونَ الْأَدْبَارَ) أَلَّا يُولُّوا الْأَدْبَارَ وَ لَا يَفِرُّوا مِنَ الرَّحْفِ

(وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا) عنه محاسبًا عليه

سيسألهم عن ذلك العهد فيجدهم قد نقضوه فما ظنهم إذا برهم؟

*وَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ

ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ فِرَارَهُمْ ذَلِكَ لَا يُؤَخِّرُ أَجَالَهُمْ وَ لَا يُطَوِّلُ أَعْمَارَهُمْ بَلْ رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَعْجِيلِ أَخْذِهِمْ

غَرَّةً وَ لِهَذَا قَالَ: {وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا} أَي: بَعْدَ هَرَبِكُمْ وَ فِرَارِكُمْ

{قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى} [النساء: 77]

و قال تعالى {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقْضُنَّ عَلَيْهِمْ وَعَلَمُ مَا كُنَّا غَائِبِينَ} [الأعراف: 6 - 7] **15**

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُسْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾
 قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
 وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ❖ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا لَا يَتَوَنَّ الْأَبَاسُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾
 أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ
 فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ
 وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَلَئِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ
 فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ
 اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ
 قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

(قُلْ) أيها النبي لهؤلاء المنافقين: (لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ) من المعركة

خوفًا من (مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ)

فإن ذلك لا يؤخر آجالكم

فلو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعكم.

و الأسباب تنفع إذا لم يعارضها القضاء و القدر فإذا جاء القضاء و القدر تلاشى كل سبب

و بطلت كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيه.

(وَلِذَا) و إن فررتم

(لَا تُسْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا) فلن تتمتعوا في هذه الدنيا إلا بقدر أعماركم المحدودة

متاعًا لا يسوى فراركم و ترككم أمر الله و تفويتكم على أنفسكم التمتع الأبدى فى النعيم السرمدى 16

ثم بين أن الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئًا إذا أَرَادَهُ اللَّهُ بسوء فقال:-

(قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ) يمنعكم

(مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا) شرًا

(أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً) فإنه هو المعطى المانع الضار النافع الذي لا يأتي بالخير إلا هو و لا يدفع السوء إلا هو.

(وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا) يتولاهم فيجلب لهم النفع

(وَلَا نَصِيرًا) ينصرهم فيدفع عنهم المضار.

فَلْيُمَثِّلُوا طَاعَةَ الْمُنْفَرِدِ بِأُمُورِ كُلِّهَا الَّذِي نَفَذَتْ مَشِئَتُهُ وَ مَضَى قَدْرُهُ وَ لَمْ يَنْفَعْ مَعَ تَرْكِ وِلَايَتِهِ وَ نَصْرَتِهِ وَلِيٍّ
و لا ناصر 17

*ثم تَوَعَّدَ تَعَالَى الْمُخْذِلِينَ الْمَعُوقِينَ وَ تَهَدَّدَهُمْ فَقَالَ:-

(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعُوقِينَ مِنْكُمْ) المثبطين عن الجهاد في سبيل الله

(وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ) أَصْحَابِهِمْ وَ عُسْرَائِهِمْ وَ خُلَطَائِهِمْ-الذين خرجوا:

(هَلُمَّ إِلَيْنَا) إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي الظَّلَالِ وَ الثَّمَارِ-ارجعوا كقولهم: (يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا)
و هم مع تعويقهم و تخذيلهم :-

(وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ) القتال و الجهاد بأنفسهم

(إِلَّا قَلِيلًا) فهم أشد الناس حرصًا على التخلف (رياء و سمعة و خوف الفضيحة)

لعدم الداعي لذلك من :- الإيمان و الصبر

و وجود المقتضى للجنب من :- النفاق و عدم الإيمان 18

(أَشِحَّةٌ) بِخَلَاء

(عَلَيْكُمْ)-أيها المؤمنون-بأبدانهم عند القتال و بأموالهم عند النفقة فيه فلا يجاهدون بأموالهم و أنفسهم
لما في نفوسهم من العداوة و الحقد حبًا في الحياة و كراهة للموت

(فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ) بسبب القتال

(رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ) نظر المغشى عليه

(تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ) لذهاب عقولهم خوفًا من القتل و فرارًا منه

(كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ) كدوران عين من حضره الموت

(مِنَ الْمَوْتِ)

من شدة الجبن الذي خلع قلوبهم و القلق الذي أذهلهم و خوفًا من إجبارهم على ما يكرهون من القتال.

(فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ) و صاروا في حال الأمن و الطمأنينة

(سَلَفَوْكُمْ) خاطبوكم و تكلموا معكم

(بِالْإِسْنَةِ حَدَادٍ) بكلام حديد و دعاوى غير صحيحة. و حين تسمعهم تظنهم أهل الشجاعة و الإقدام
 *فَإِذَا كَانَ الْأَمْنُ تَكَلَّمُوا كَلَامًا بَلِيغًا فَصِيحًا عَالِيًّا وَ ادَّعُوا لِنَفْسِهِمُ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةَ فِي الشَّجَاعَةِ وَ النَّجْدَةِ
 وَ هُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ.
 *أَمَّا عِنْدَ الْغَنِيمَةِ فَأَشْحَ قَوْمٌ وَ أَسْوَأُهُ مُقَاسِمَةٌ: -أَعْطُونَا أَعْطُونَا قَدْ شَهِدْنَا مَعَكُمْ.
 *وَ أَمَّا عِنْدَ الْبَاسِ فَأَجَبُ قَوْمٌ وَ أَخَذْلَهُ لِلْحَقِّ.

(أَشْحَى عَلَى الْخَيْرِ) ليس فيهم خيرٌ قد جمَعُوا الجُبْنَ وَ الكَذِبَ وَ قِلَّةَ الْخَيْرِ- عند قسمة الغنائم بخلاء وحسدة
 ○الذي يراد منهم و هذا شر ما في الإنسان أن يكون:-

شحيحًا بما أمر به شحيحًا بماله أن ينفقه فى وجهه
 شحيحًا فى بدنه أن يجاهد أعداء اللّٰه و يدعو إلى سبيل اللّٰه
 شحيحًا بجاهه

شحيحًا بعلمه و نصيحته و رأيه.

(أُولَئِكَ) الذين بتلك الحالة

(لَمْ يُؤْمِنُوا) بسبب عدم إيمانهم

(فَأَحْبَطَ اللَّهُ) أذهب الله ثواب (أَعْمَلَهُمْ)

(وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) سهلاً هيئاً عنده.

○ و أما المؤمنون فقد وقاهم الله شح أنفسهم

و وفقهم لبذل ما أمروا به من بذل:-

1- لأبدانهم في القتال في سبيله و إعلاء كلمته

2- و أموالهم للنفقة فى طرق الخير

3- و جاههم

4- و علمهم 19

(يَحْسَبُونَ) يظنون [أى المنافقون] أن هؤلاء

(الْأَحْزَابِ) الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ و أصحابه [الذين هزمهم الله تعالى شر هزيمة]

(لَمْ يَذْهَبُوا) حتى يستأصلوهم فخاب ظنهم و بطل حسابانهم و ذلك من شدة الخوف و الجبن

(وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ) لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة

(يُودُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ) أنهم كانوا غائبين عن «المدينة» (ليسوا فى المدينة و لا فى القرب منها)

(فِي الْأَعْرَابِ) بين أعراب البادية

يستخبرون عن أخباركم (يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ) ماذا حصل عليكم؟
فتباً لهم و بعداً فليسوا ممن يُبالي بحضورهم

(وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا)
*وَلَوْ كَانُوا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ لَمَا قَاتَلُوا مَعَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا لـ:—

1- كَرَّةٍ جُنْبِهِمْ

2- وَ ذَلَّتْهُمْ

3- وَ ضَعْفٍ يَقِينِهِمْ

* فلا تبالوهم و لا تأسوا عليهم 20

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ) أيها المؤمنون (فِي رَسُولِ اللَّهِ) في أقواله و أفعاله و أحواله

(أُسْوَةٌ) قدوة (حَسَنَةٌ) تتأسون بها فالزموا سنته

حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة و باشر موقف الحرب و هو الشريف الكامل و البطل الباسل
فكيف تشحون بأنفسكم عن أمر جاد رسول الله ﷺ بنفسه فيه؟
فَتَأَسَّوْا بِهِ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَ غَيْرِهِ.

و استدل الأصوليون في هذه الآية على :-

1- الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ

2- و أن الأصل أن أمته أسوته في الأحكام إلا ما دل الدليل الشرعي على الاختصاص به.

فالأسوة نوعان:-

1- أسوة حسنة

2- و أسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ

فإن المتأسّي به سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله و هو الصراط المستقيم.

و أما الأسوة بغيره إذا خالفه:-

فهو الأسوة السيئة كقول الكفار حين دعته الرسل للتأسّي بهم (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)

فإنما يسلكها و يتأسى بها (لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)

فإن ما معه من:-

الإيمان و خوف الله و رجاء ثوابه و خوف عقابه يحثه على التأسّي بالرسول ﷺ

(وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا) و أكثر من ذكر الله و استغفاره و شكره في كل حال **21**

* لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف ذكر حال المؤمنين فقال:-

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ) الذين تحزبوا و نزلوا منازلهم و انتهى الخوف

* قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ قَتَادَةُ: يَعْنُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي "سُورَةِ الْبَقَرَةِ"

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: 214] .

(قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ) مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَ الْإِخْتِبَارِ وَ الْإِمْتِحَانِ الَّذِي يَعْقُبُهُ النَّصْرُ الْقَرِيبُ

لكوله: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)

وَ لِهَذَا قَالَ:- (وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) فإننا رأينا ما أخبرنا به

(وَمَا زَادَهُمْ) ذلك الأمر وَ الضِّيقُ وَ الشَّدَّةُ-النظر للاحزاب (إِلَّا إِيْمَانًا) بالله ففى قلوبهم

(وَتَسْلِيمًا) ففى جوارحهم و انقيادًا لأمر الله-لرسوله-لقضائه

* دَلِيلٌ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَ قُوَّتِهِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى النَّاسِ وَ أَحْوَالِهِمْ كَمَا قَالَهُ جُمْهُورُ الْأَئِمَّةِ:- إِنَّهُ يَزِيدُ وَ يَنْقُصُ **22**

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ مِّنْ قَضَىٰ نَجَهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ مَا بَدَلُوا بِدِيلًا ﴿٢٣﴾
 لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا
 ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرَ لَوْ كَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالُ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾
 وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ
 وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا
 ﴿٢٧﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ
 وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ
 فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ
 يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

الصحيح المسند من أسباب النزول: البخاري 2805 - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ فَقَالَ:
 «يَا رَسُولَ اللَّهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتُ الْمُشْرِكِينَ لَئِنْ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيْنَّ اللَّهَ مَا أَصْنَعُ»
 فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ (انهمزوا) قَالَ:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْرِى أَصْحَابَهُ -
 وَ أَبرأ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْرِى الْمُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ» فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ:-
 يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْجَنَّةُ (أريد الجنة و هي مطلوب) وَ رَبُّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ (أشم) رِيحَهَا مِنْ دُونِ أَحَدٍ

(عند أحد و يحتمل أنه وجد ريحها حقيقة كرامة له و يحتمل أنه أراد أن الجنة تكتسب في هذا الموضع فاشتاق لها)

قَالَ سَعْدُ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ

قَالَ أَنَسُ: فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا (من الثلاث إلى تسع) وَ ثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمَحٍ أَوْ رَمِيَّةً بِسَهْمٍ
 وَ وَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَ قَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَخْتَهُ بِنَانَهُ (أصابه أو أطراف أصابعه)

قَالَ أَنَسُ: كَمَا نَرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب: 23] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ

○ ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله لا يولون الأديار و نقضوا ذلك العهد ذكر وفاء المؤمنين به

فقال: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا)

وفوا به و أتموه و أكملوه فبدلوا مهجهم في مرضاته و سبّلوا أنفسهم في طاعته.

(مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) بعهودهم مع الله تعالى

(فِيهِمْ مِّنْ قَضَىٰ نَجَهِ) أجله-عهده و هو يرجع الى الاول-مَوْتُهُ عَلَى الصِّدْقِ وَ الْوَفَاءِ-نذره

-إرادته و مطلوبه و ما عليه من الحق فقتل فى سبيل الله أو مات مؤدياً لحقه لم ينقصه شيئاً.

(وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ) الْمَوْتَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ- أو النصر

تكميل ما عليه فهو شارع في قضاء ما عليه و وفاء نجه و لما يكمله و هو في رجاء تكميله ساع في ذلك مجد .

(وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا) وَمَا غَيَّرُوا عَهْدَهُمْ وَ بَدَلُوا الْوَفَاءَ بِالْعَدْرِ بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ وَ مَا نَقَضُوهُ

كَهَئِلِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالُوا: {إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} [الأحزاب: 13]

{ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لما يولوه من الأدبار

و من عداهم فصورهم صور رجال و أما الصفات فقد قصرت عن صفات الرجال

* البخارى 4784 - عن عن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ:

لَمَّا نَسَخْنَا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ فَقَدْتُ آيَةً مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرُؤُهَا لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ إِلَّا مَعَ خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ الَّذِي جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَتَهُ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ:

{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب: 23]

* مسلم (1903) عَنْ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه:

«عَمِيَ الَّذِي سُمِّيَتْ بِهِ (باسمه وهو أنس بن النضير) لَمْ يَشْهَدْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَدْرًا»

قَالَ: فَشَقَّ عَلَيْهِ قَالَ: أَوَّلَ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غُيِّبَتْ عَنْهُ

وَ إِنْ أَرَانِي اللَّهَ مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيرَانِي اللَّهَ مَا أَصْنَعُ (يرى الله ما أصنع)

قَالَ: «فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا» (معناه أنه اقتصر على هذه اللفظة المبهمة وهى قوله ليرانى الله ما أصنع مخافة أن يعاهد الله على غيرها فيعجز عنه أو تضعف

بنيته عنه أو نحو ذلك وليكون أبرأ له من الحول والقوة)

قَالَ: «فَشْهَدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ» قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ

فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ: يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ؟ فَقَالَ: وَاهَا (واها كلمة تحنن وتلهف والقاتل هو أنس) لِرِيحِ الْجَنَّةِ أَجَدُهُ دُونَ أُحُدٍ

(محمول على ظاهره وأن الله تعالى أوجده ريحها من موضع المعركة وقد ثبتت الأحاديث أن ريحها توجد من مسيرة خمسمائة عام)

قَالَ: «فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ» قَالَ: «فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بَضْعٌ وَ ثَمَانُونَ مِنْ بَيْنِ ضَرْبَةٍ وَ طَعْنَةٍ وَ رَمِيَةٍ»

قَالَ: فَقَالَتْ أُخْتُهُ - عَمَّتِي الرُّبَيْعُ بِنْتُ النَّضْرِ - فَمَا عَرَفْتُ أَحَى إِلَّا بِنَانِهِ

وَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 23]

قَالَ: «فَكَانُوا يُرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَ فِي أَصْحَابِهِ» 23

قدرنا ما قدرنا من هذه الفتن و المحن و الزلازل ليتبين الصادق من الكاذب (لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ)

بسبب صدقهم في أقوالهم و أحوالهم و معاملتهم مع الله و استواء ظاهريهم و باطنهم قال الله تعالى:

(هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)

(وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ) الذين تغيرت قلوبهم و أعمالهم عند حلول الفتن و لم يفوا بما عاهدوا الله عليه.

(إِنْ شَاءَ) تعذيبهم بأن لم يشأ هدايتهم بل علم أنهم لا خير فيهم فلم يوفقهم.

(أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) بأن يوفقهم للتوبة و الإنابة و هذا هو الغالب على كرم الكريم

و لهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة و الفضل و الإحسان

فقال:- (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا) لذنوب المسرفين على أنفسهم و لو أكثروا من العصيان إذا أتوا بالمتاب

(رَجِيمًا) بهم حيث وفقهم للتوبة ثم قبلها منهم و ستر عليهم ما اجترحوه 24

(وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ) ردهم خائبين مغتاظين [خاسرين] لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حنقين عليه

قادرين عليه جازمين بأن لهم الدائرة قد غرتهم جموعهم و أعجبوا بتحزيبهم و فرحوا بَعَدَدِهِمْ و عُدَدِهِمْ.

(لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا) في الدنيا و لا في الآخرة فأرسل الله عليهم ريحًا عظيمة و هـ ي ريح الصبا فزعزعت مراكزهم

و قوّضت خيامهم و كفأت قدورهم و أزعجتهم و ضربهم الله بالرعب فانصرفوا بغيظهم

و لَوْلَا أَنَّ جَعَلَ اللَّهُ رَسُولَهُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ لَكَانَتْ هَذِهِ الرِّيحُ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ مِنَ الرِّيحِ الْعَقِيمِ عَلَى عَادٍ

و لَكِنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: 33]

فَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ هَوَاءً فَفَرَّقَ شَمْلَهُمْ كَمَا كَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْهَوَى وَ هُمْ أَخْلَاطٌ مِنْ قِبَائِلٍ شَتَّى أَحْزَابٍ

و آراءٍ فَنَاسَبَ أَنْ يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم و رَدَّهُمْ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ بِغَيْظِهِمْ و حَنَقِهِمْ

لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا لَا فِي الدُّنْيَا مِمَّا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الظُّفْرِ وَ الْمَغْنَمِ وَ لَا فِي الْآخِرَةِ بِمَا تَحَمَّلُوهُ مِنَ الْأَثَامِ

فِي مُبَارَزَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَ سَلَامُهُ عَلَيْهِ بِالْعَدَاوَةِ وَ هَمَّهُمْ بِقَتْلِهِ وَ اسْتِثْصَالِ جَيْشِهِ

و مَنْ هُمْ بِشَيْءٍ وَ صَدَقَ هَمُّهُ بِفِعْلِهِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَفَاعِلِهِ.

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) بما صنع لهم من الأسباب العادية و القدرية

* لَمْ يَحْتَاجُوا إِلَى مُنَازَلَتِهِمْ وَ مُبَارَزَتِهِمْ حَتَّى يُجْلَوْهُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ بَلْ كَفَى اللَّهُ وَحْدَهُ وَ نَصَرَ عَبْدَهُ وَ أَعَزَّ جُنْدَهُ

و لِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مُسْلِم (2724) عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

كَانَ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ أَعَزَّ جُنْدَهُ وَ نَصَرَ عَبْدَهُ وَ غَلَبَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ» (سواء)

* الصحيح المسند من أسباب النزول: النسائي 661 - عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

شَغَلَنَا الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ عَنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِي الْقِتَالِ مَا نَزَلَ

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} [الأحزاب: 25]

«فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلَا لَاقَاقَامٍ لِّصَلَاةِ الظُّهْرِ فَصَلَّاهَا كَمَا كَانَ يُصَلِّيُهَا لَوْ قَتَلَهَا

ثُمَّ أَقَامَ لِلْعَصْرِ فَصَلَّاهَا كَمَا كَانَ يُصَلِّيُهَا فِي وَقْتِهَا ثُمَّ أَذَّنَ لِلْمَغْرِبِ فَصَلَّاهَا كَمَا كَانَ يُصَلِّيُهَا فِي وَقْتِهَا»

(وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا) لا يغالبه أحد إلا غلب و لا يستنصره أحد إلا غلب و لا يعجزه أمر أرادته

و لا ينفع أهل القوة و العزة قوتهم و عزتهم إن لم يعنهم بقوته و عزته.

*قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ بَرِيَّ قُرَيْظَةَ لَمَّا قَدِمَتْ جُنُودُ الْأَحْزَابِ وَ نَزَلُوا عَلَى الْمَدِينَةِ نَقَضُوا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَهْدِ وَ كَانَ ذَلِكَ بِسِفَارَةِ حِيٍّ بْنِ أَخْطَبِ النَّضْرِيِّ -لَعَنَهُ اللَّهُ- دَخَلَ حَصْنَهُمْ وَ لَمْ يَزَلْ بِسَيِّدِهِمْ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ حَتَّى نَقَضَ الْعَهْدَ وَ قَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ: وَيَحَكَ قَدْ جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ أَتَيْتُكَ بِقُرَيْشٍ وَ أَحَابِيشِهَا وَ غَطَفَانَ وَ أَتْبَاعَهَا وَ لَا يَزَالُونَ هَاهُنَا حَتَّى يَسْتَأْصِلُوا مُحَمَّدًا وَ أَصْحَابَهُ.

فَقَالَ لَهُ كَعْبُ: بَلْ وَ اللَّهُ أَتَيْتَنِي بِذُلِّ الدَّهْرِ. وَيَحَكَ يَا حِيٍّ إِنَّكَ مَشْؤُومٌ فَدَعْنَا مِنْكَ. فَلَمْ يَزَلْ يَفْتِلُ فِي الذَّرْوَةِ وَ الْغَارِبِ حَتَّى أَجَابَهُ وَ اشْتَرَطَ لَهُ حِيٍّ إِنْ ذَهَبَ الْأَحْزَابُ وَ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْءٌ أَنْ يَدْخُلَ مَعَهُمْ فِي الْحِصْنِ فَيَكُونُ لَهُ أَسْوَتُهُمْ.

فَلَمَّا نَقَضَتْ قُرَيْظَةُ وَ بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاءَهُ وَ شَقَّ عَلَيْهِ وَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ جَدًّا فَلَمَّا أَيْدَى اللَّهُ وَ نَصَرَ وَ كَبَتِ الْأَعْدَاءُ وَ رَدَّاهُمْ خَائِبِينَ بِأَخْسَرِ صَفْقَةٍ وَ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ مُؤَيَّدًا مَنصُورًا وَ وَضَعَ النَّاسُ السَّلَاحَ.

فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْتَسِلُ مِنْ وَعْثَاءِ تِلْكَ الْمُرَابِطَةِ فِي بَيْتٍ أُمِّ سَلَمَةَ إِذْ تَبَدَّى لَهُ جَبْرِيلُ مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ عَلَى بَغْلَةٍ عَلَيْهَا قُطِيفَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ فَقَالَ: أَوْضَعْتَ السَّلَاحَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: "نَعَمْ". قَالَ: لَكِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَضَعْ أَسْلِحَتَهَا وَ هَذَا الْآنَ رُجُوعِي مِنْ طَلَبِ الْقَوْمِ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَنْهَضَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ. وَ فِي رِوَايَةٍ فَقَالَ لَهُ: عَذِيرُكَ مِنْ مُقَاتِلِ أَوْضَعْتُمُ السَّلَاحَ؟ قَالَ: "نَعَمْ". قَالَ: لَكِنَّا لَمْ نَضَعْ أَسْلِحَتَنَا بَعْدَ انْهَضِ إِلَى هَؤُلَاءِ. قَالَ: "أَيْنَ؟". قَالَ: بَنِي قُرَيْظَةَ.

فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُرْزَلَ عَلَيْهِمْ. فَنَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قُورِهِ وَ أَمَرَ النَّاسَ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ وَ كَانَتْ عَلَى أُمِّيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ وَ ذَلِكَ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ وَ قَالَ: "لَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ".

فَسَارَ النَّاسُ فَأَذْرَكَتْهُمْ الصَّلَاةُ فِي الطَّرِيقِ فَصَلَّى بَعْضُهُمْ فِي الطَّرِيقِ وَ قَالُوا: لَمْ يَرِدْ مِنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا تَعَجُّيلَ السَّيْرِ وَ قَالَ آخَرُونَ: لَا نُصَلِّيَهَا إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ.

فَلَمْ يُعْتَفَ وَاحِدًا مِنَ الْقَرِيقَيْنِ. وَ تَبِعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَ قَدْ اسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَ أَعْطَى الرَّايَةَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ ثُمَّ نَارَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَ حَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْحَالُ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ -سَيِّدِ الْأَوْسِ- لِأَنَّهُمْ كَانُوا حُلَفَاءَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَ اعْتَقَدُوا أَنَّهُ يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنْ سُلُوفٍ فِي مَوَالِيهِ بَنِي قَيْنِقَاعَ

حِينَ اسْتَطَلَقَهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَظَنَّ هَؤُلَاءِ أَنَّ سَعْدًا سَيَفْعَلُ فِيهِمْ كَمَا فَعَلَ ابْنُ أَبِي فِي أَوْلِيِّكَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ سَعْدًا ﷺ كَانَ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ فِي أَكْحَلِهِ أَيَّامَ الْخَنْدَقِ فَكَوَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَكْحَلِهِ وَأَنْزَلَهُ فِي قُبَّةٍ فِي الْمَسْجِدِ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ. وَ قَالَ سَعْدٌ فِيمَا دَعَا بِهِ:-
اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِرِي لَهَا.

وَ إِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ فَأَجْرُهَا وَ لَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقَرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ. فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ وَ قَدَّرَ عَلَيْهِمْ أَنْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ بِاخْتِيَارِهِمْ طَلَبًا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ

فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَدْعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ لِيَحْكُمَ فِيهِمْ

فَلَمَّا أَقْبَلَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ قَدْ وَطَّوُوا لَهُ عَلَيْهِ جَعَلَ الْأَوْسُ يَلُودُونَ بِهِ وَ يَقُولُونَ:-

يَا سَعْدُ إِنَّهُمْ مَوَالِيكَ فَأَحْسِنْ فِيهِمْ. وَ يُرَقِّقُونَهُ عَلَيْهِمْ وَ يُعْطِفُونَهُ وَ هُوَ سَاكِتٌ لَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ. فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَالَ: لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَلَّا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمًا. فَعَرَفُوا أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَبْقِيهِمْ

فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْخِيْمَةِ الَّتِي فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ".
 فَقَامَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فَأَنْزَلُوهُ إِعْظَامًا وَ إِكْرَامًا وَ احْتِرَامًا لَهُ فِي مَحَلٍّ وَلَايَتِهِ لِيَكُونَ أَنْفَذَ لِحُكْمِهِ فِيهِمْ.
 فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: -إِنْ هَؤُلَاءِ- وَ أَشَارَ إِلَيْهِمْ -قَدْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ فَأَحْكُمْ فِيهِمْ بِمَا شِئْتَ"
 قَالَ: وَ حُكْمِي نَافِذٌ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ: "نَعَمْ". قَالَ: وَ عَلَى مَنْ فِي هَذِهِ الْخِيْمَةِ؟ قَالَ: "نَعَمْ".
 قَالَ: وَ عَلَى مَنْ هَاهُنَا. -وَ أَشَارَ إِلَى الْجَانِبِ الَّذِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ-

وَ هُوَ مُعْرِضٌ بِوَجْهِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِجْلَالًا وَ إِكْرَامًا وَ إِعْظَامًا -فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "نَعَمْ".
 فَقَالَ: إِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَ تُسَبَى ذُرِّيَّتُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
 "لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ" وَ فِي رِوَايَةٍ: "لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ الْمَلِكِ".
 ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَ سَلَّمَ بِالْأَخَادِيدِ فَخَدَّتْ فِي الْأَرْضِ وَ جِيءَ بِهِمْ مُكْتَفَيْنَ فَضْرَبَ أَعْنَاقَهُمْ
 وَ كَانُوا مَا بَيْنَ السَّبْعِمِائَةِ إِلَى الثَّمَانِمِائَةِ وَ سَبَى مَنْ لَمْ يُنَبِّتْ مِنْهُمْ مَعَ النِّسَاءِ وَ أَمْوَالِهِمْ
 وَ هَذَا كُلُّهُ مُقَرَّرٌ مُفَصَّلٌ بِأَدِلَّتِهِ وَ أَحَادِيثِهِ وَ بَسْطِهِ فِي كِتَابِ السِّيَرَةِ الَّذِي أَفْرَدْنَاهُ مُوجَزًا وَ مُقْتَصًا **26**

وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى: **(وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ)** عاونوا الأحرابَ وَ سَاعَدُوهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) بَرَى قُرَيْظَةَ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ بَعْضِ أَسْبَاطِ بَرَى إِسْرَائِيلَ كَانَ قَدْ نَزَلَ آبَاؤُهُمُ الْحِجَارَ قَدِيمًا
 طَمَعًا فِي اتِّبَاعِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ
 {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ} [البقرة: 89]

(مِنْ صِبْيَانِهِمْ) حصونهم نزولا مظفورا بهم مجعولين تحت حكم الإسلام.

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) فلم يقووا على القتال بل استسلموا و خضعوا و ذلوا.

* وَ هُوَ الْخَوْفُ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَالُؤًا الْمُشْرِكِينَ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَ لَيْسَ مَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لَا يَعْلَمُ
 فَأَخَافُوا الْمُسْلِمِينَ وَ رَامُوا قَتْلَهُمْ لِيَعِزُّوا فِي الدُّنْيَا فَانْعَكَسَ عَلَيْهِمُ الْحَالُ
 وَ انْقَلَبَ الْفَالُ انْشَمَرَ الْمُشْرِكُونَ فَفَارَّوْا بِصَفْقَةِ الْمَغْبُوبِ
 فَكَمَا رَامُوا الْعِزَّ ذُلُّوا وَ أَرَادُوا اسْتِئْصَالَ الْمُسْلِمِينَ فَاسْتَوْصِلُوا وَ أَضِيفَ إِلَى ذَلِكَ شَقَاوَةُ الْآخِرَةِ
 فَصَارَتْ الْجُمْلَةُ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الصَّفْقَةُ الْخَاسِرَةُ وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى: -

(فَرِيقًا تَقْتُلُونَ) وَ هُمُ الرِّجَالُ الْمُقَاتِلُونَ

(وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا) مَنْ عَدَاهُمْ مِنَ النِّسَاءِ وَ الصِّبْيَانِ. وَ **الْأَسْرَاءُ** هُمُ الْأَصَاغِرُ وَ النِّسَاءُ.

* أحمد 19421- عَنْ عَطِيَّةِ الْقُرْظِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

عُرِضْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ فَشَكُّوا فِي فَاَمَرَ بِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَيَّ هَلْ أَنْبَتُ بَعْدُ؟
 فَنَظَرُوا فَلَمْ يَجِدُونِي أَنْبَتُ فَخَلَّى عَنِّي وَ أَلْحَقَنِي بِالسَّيْفِ **26**

(وَأَوْرَثَكُمْ) غَنَمَكُمْ

(أَرْضَهُمْ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ) جَعَلَهَا لَكُمْ مِنْ قَتْلِكُمْ لَهُمْ

(وَأَرْضًا لَمْ تَطْطُوهَا) قِيلَ: خَيْرٌ. وَقِيلَ: مَّا. رَوَاهُ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ. وَقِيلَ: قَارِسٌ وَ الرُّومُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ مُرَادًا.

*أرضاً كانت من قبل من شرفها و عزتها عند أهلها لا يتمكنون من وطئها فمكنكم الله و خذلهم و غنمتم أموالهم و قتلتموهم و أسرتموهم.

آداب و توجيهات لأزواج النبي ﷺ 28-34

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) لا يعجزه شيء و من قدرته قَدَّرَ لكم ما قدر 27

(يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًا لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا) يطلبن منك زيادة النفقة و الكسوة
أمرًا لا يقدر عليه في كل وقت و لم يزلن في طلبهن متفقات في مرادهن متعنتات شَقَّ ذلك على الرسول حتى وصلت به الحال إلى أنه آلى منهن شهرًا.

*فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله و أن يرفع درجة زوجاته و يُذهب عنهن كل أمر ينقص أجرن
*البخارى 4785- عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَاءَهَا حِينَ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُخَيَّرَ أَزْوَاجَهُ فَبَدَأَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَسْتَعْجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ»
وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيْ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ} [الأحزاب: 28]
إِلَى تَمَامِ الْآيَتَيْنِ فَقُلْتُ لَهُ: فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ

(فَتَعَالَى أُمُتُّكُمْ) شيئاً مما عندى من الدنيا

(وَأَسْرَحَكُنَّ) أفارقكن (سَرَّاحًا جَمِيلًا) من دون مغاضبة و لا مشاتمة

بل بسعة صدر و انشراح بال قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينبغي 28

(وَلِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ)

أي: هذه الأشياء مرادكن و غاية مقصودكن و إذا حصل لَكُنَّ الله و رسوله و الجنة لم تبالين بسعة الدنيا و ضيقها و يسرها و عسرهما و قنعتن من رسول الله بما تيسر و لم تطلبن منه ما يشق عليه

(فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا)

رتب الأجر على وصفهن بالإحسان لأنه السبب الموجب لذلك لا لكونهن زوجات للرسول
فإن مجرد ذلك لا يكفي بل لا يفيد شيئاً مع عدم الإحسان فخيرهن رسول الله ﷺ في ذلك
فاخترن الله و رسوله و الدار الآخرة كلهن و لم يتخلف منهن واحدة رضي الله عنهن.

و فى هذا التحخير فوائد عديدة:-

1-الاعتناء برسوله و غيرته عليه أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

2-سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات

و أنه يبقى في حرية نفسه إن شاء أعطى و إن شاء منع (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ)

3-تنزيهه عما لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله و رسوله و الدار الآخرة و عن مقارنتها.

4-سلامة زوجاته رضي الله عنهن عن الإثم و التعرض لسخط الله و رسوله.

فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول الموجب لسخطه المسخط لربه الموجب لعقابه.

5-إظهار رفعتهم و علو درجاتهم و بيان علو هممهم أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن و مقصودهن دون الدنيا و حطامها.

6-استعدادهن بهذا الاختيار للأمر الخيار للوصول إلى خيار درجات الجنة و أن يَكُنَّ زوجاته في الدنيا والآخرة.

7-ظهور المناسبة بينه و بينهما فإنه أكمل الخلق و أراد الله أن تكون نساؤه كاملات مكملات طيبات مطيبات (وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

8-أن هذا التخيير داع و موجب للقناعة التي يطمئن لها القلب و ينشرح لها الصدر و يزول عنهن جشع الحرص و عدم الرضا الموجب لقلق القلب و اضطرابه و همه و غمه.

9-أن يكون اختيارهن هذا سبباً لزيادة أجرهن و مضاعفته و أن يَكُنَّ بمرتبة ليس فيها أحد من النساء 29

و لهذا قال: - (يُنْسَاءُ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكَ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ) وَ هِيَ النُّشُوزُ وَ سُوءُ الْخُلُقِ.

وَ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَهُوَ شَرْطٌ وَ الشَّرْطُ لَا يَقْتَضِي الْوُقُوعَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: 65]

وَ كَقَوْلِهِ: {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 88] {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [الزخرف: 81]

{لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الزمر: 4]

فَلَمَّا كَانَتْ مُحَلَّتَهُنَّ رَفِيعَةً نَاسَبَ أَنْ يَجْعَلَ الذَّنْبَ لَوْ وَقَعَ مِنْهُنَّ مُغْلَظًا صِيَانَةً لِحَبَابِهِنَّ وَ حِبَابِهِنَّ الرَّفِيعِ

*لما اخترن الله و رسوله و الدار الآخرة:- ذكر مضاعفة أجرهن و مضاعفة وزرهن و إثمهن لو جرى منهن ليزداد

حذرهن و شكرهن الله تعالى لِهَذَا قَالَ: - (يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ)

فجعل من أتى منهن بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين- في الدنيا و الآخرة.

(وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) سَهْلًا هَيَّئًا.

*الصحيح الممسند من أسباب النزول: البخارى 2468 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

قَالَ: لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ رضي الله عنه عَنِ الْمَرَّاتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ لَهُمَا:

{إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [التحریم: 4] فَحَجَجْتُ مَعَهُ فَعَدَلْتُ مَعَهُ بِالْإِدَاوَةِ

فَتَبَرَّرَ حَتَّى جَاءَ فَسَكَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْإِدَاوَةِ فَتَوَضَّأَ فَقُلْتُ:

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَرَاتَانِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمَا:

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا [التحریم: 4]؟

فَقَالَ: وَاعْبِي لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ (عَائِشَةُ وَ حَفْصَةُ) ثُمَّ اسْتَقْبَلَ عُمَرَ الْحَدِيثَ يَسُوقُهُ

فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ وَجَارًا لِي مِنَ الْأَنْصَارِ فِي بَرَى أُمِّيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَ هِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ

وَ كُنَّا نَتَنَاقَبُ النَّزُولَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَانْزِلُ يَوْمًا

فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ مِنْ خَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْأَمْرِ وَغَيْرِهِ وَ إِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَهُ وَكُنَّا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ

فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى الْأَنْصَارِ إِذَا هُمْ قَوْمٌ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَأْخُذْنَ مِنْ أَدَبِ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ

فَصَحْتُ عَلَى امْرَأَتِي فَارْجَعْتَنِي فَأَنْكَرْتُ أَنْ تَرَا جَعَرِي فَقَالَتْ: وَ لِمَ تُنْكِرُ أَنْ أَرَا جَعَكَ

فَوَاللَّهِ إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ لَيُرَاجِعْنَهُ وَ إِنَّ إِحْدَاهُنَّ لَتَهْجُرُهُ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ

فَأَفْرَعَرِي فَقُلْتُ: خَابَتْ مَنْ فَعَلَ مِنْهُنَّ بِعَظِيمٍ ثُمَّ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ

فَقُلْتُ: أَيُّ حَفْصَةَ أَتَغَاضِبُ إِحْدَاكُنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ فَقُلْتُ: خَابَتْ وَ خَسِرْتُ

أَفْتَأْمَنْ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ لِيغْضِبَ رَسُولَهُ ﷺ فَتَهْلِكِينَ لَا تَسْتَكْثِرِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَ لَا تَرَا جَعِيهِ فِي شَيْءٍ

وَ لَا تَهْجُرِيهِ وَ اسْأَلِينِي مَا بَدَا لَكَ وَ لَا يَغْرَنَكَ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكَ هِيَ أَوْضًا مِنْكَ وَ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ -

يُرِيدُ عَائِشَةَ - وَ كُنَّا تَحَدَّثْنَا أَنَّ غَسَّانَ تُنْعَلُ النِّعَالُ لِعَزْوَانَا فَزَلَّ صَاحِبِي يَوْمَ نَوْبَتِهِ فَرَجَعَ عِشَاءً

فَضْرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا وَ قَالَ: أَنَا نَائِمٌ هُوَ فَفَزَعْتُ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ وَ قَالَ:

حَدَّثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ قُلْتُ: مَا هُوَ؟ أَجَاءَتْ غَسَّانُ؟

قَالَ: لَا بَلْ أَعْظَمُ مِنْهُ وَأَطْوَلُ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ قَالَ: قَدْ خَابَتْ حَفْصَةُ وَ خَسِرْتُ

كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذَا يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ فَجَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي فَصَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ

فَدَخَلَ مَشْرُبَةً لَهُ فَاعْتَزَلَ فِيهَا فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَإِذَا هِيَ تَبْكِي

قُلْتُ: مَا يُبْكِيكِ؟ أَوَلَمْ أَكُنْ حَدَرْتُكَ أَطْلَقَكُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ:

لَا أَدْرِي هُوَ ذَا فِي الْمَشْرُبَةِ فَخَرَجْتُ فَجِئْتُ الْمُنْبَرَّ فَإِذَا حَوْلَهُ رَهْطٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ فَجَلَسْتُ مَعَهُمْ قَلِيلًا

ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ فَجِئْتُ الْمَشْرُبَةَ الَّتِي هُوَ فِيهَا فَقُلْتُ لِغُلَامٍ لَهُ أَسْوَدٌ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ

فَدَخَلَ فَكَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَتَ فَانْصَرَفْتُ حَتَّى جَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمُنْبَرِ

ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ فَجِئْتُ فَذَكَرَ مِثْلَهُ فَجَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمُنْبَرِ ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ فَجِئْتُ الْغُلَامَ

فَقُلْتُ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ فَذَكَرَ مِثْلَهُ فَلَمَّا وَلَّيْتُ مُنْصَرِفًا فَإِذَا الْغُلَامُ يَدْعُونِي قَالَ:

أَذِنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالٍ حَصِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَهُ فِرَاشٌ

قَدْ أَثَرَ الرِّمَالِ بِجَنْبِهِ مُتَّكِيٌّ عَلَى وَسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشَوْهَا لَيْفٌ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ قُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ:

طَلَّقْتَ نِسَاءَكَ فَفَرَعَ بَصَرَهُ إِلَيَّ فَقَالَ: «لَا» ثُمَّ قُلْتُ وَ أَنَا قَائِمٌ:

أَسْتَأْنِسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ رَأَيْتَنِي وَ كُنَّا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى قَوْمٍ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ

فَذَكَرَهُ فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ قُلْتُ: لَوْ رَأَيْتَنِي وَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَقُلْتُ:

لَا يَغْرَنَكَ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكَ هِيَ أَوْضًا مِنْكَ وَ أَحَبَّ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ - يُرِيدُ عَائِشَةَ - فَتَبَسَّمَ أُخْرَى

فَجَلَسْتُ حِينَ رَأَيْتُهُ تَبَسَّمَ ثُمَّ رَفَعْتُ بَصْرِي فِي بَيْتِهِ فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ غَيْرَ أَهْبَةِ ثَلَاثَةِ

فَقُلْتُ: ادْعُ اللَّهُ فُلْيُوسُوعَ عَلَى أَمْنِكَ فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ وَ أَعْطَاوَا الدُّنْيَا وَ هُمْ لَيَعْبُدُونَ اللَّهَ

وَكَانَ مُتَكِنًا فَقَالَ: «أَوْفِي شَكُّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أُولَئِكَ قَوْمٌ عَجَلَتْ لَهُمْ طِبَابَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»
 فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَغْفِرْ لِي فَأَعْتَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ حِينَ أَفْشَتْهُ حَفْصَةُ إِلَى عَائِشَةَ
 وَكَانَ قَدْ قَالَ: «مَا أَنَا بِدَاخِلٍ عَلَيْهِنَّ شَهْرًا مِنْ شِدَّةٍ مَوْجِدَتِهِ عَلَيْهِنَّ حِينَ عَاتَبَهُ اللَّهُ»
 فَلَمَّا مَضَتْ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَبَدَأَ بِهَا فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ:-
 إِنَّكَ أَقْسَمْتَ أَنْ لَا تَدْخُلَ عَلَيْنَا شَهْرًا وَإِنَّا أَصْبَحْنَا لِتِسْعٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً أَعْدُّهَا عَدًّا
 فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ» وَكَانَ ذَلِكَ الشَّهْرُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ
 قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَنْزَلْتَ: آيَةَ التَّخْيِيرِ فَبَدَأَ بِي أَوَّلَ امْرَأَةٍ فَقَالَ: «إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا
 وَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ» قَالَتْ: قَدْ أَعْلَمْتُ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِكَ
 ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ} [الأحزاب: 28] إِلَى قَوْلِهِ {عَظِيمًا} "قُلْتُ:
 أَفِي هَذَا اسْتَأْمَرُ أَبَوَيَّ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ثُمَّ خَيْرَ نِسَاءهُ فَقُلْنَ مِثْلَ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ 30